Placebo

Illusion drug..

بلاسيبو

دواء الوهم..

روايـة

د. محمد السنور

بِلَاسِيبُو

الكتاب: بلاسيبو

المؤلف: محمد السنور

التدقيق اللغوي: د.محمد علي سعيد

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

ISBN: 978-91-89273-21-4

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2020-10-07-17-20

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاسترا جوتالند

هاتف: ٠٠٤٦٧٩٠١٨٥٥١٨

البريد الإلكتروني: digitizethearabicbook@hotmail.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار رقمنة الكتاب العربي-ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

روايةِ

Placebo
Illusion drug..

بلاسيبو
دواء الوهم..

تأليف :

د. محمد السنور

الطبعة الأولى لعام ٢٠٢٠

إهداء..

أهدي هذا العمل الى..

كل شخص لم يرَ الناس بألوانهم وأشكالهم..

كل قلب حر عاش ليحارب التمييز والعنصرية ..

كل احساس حقيقي ناصر اللاجئيين والضعفاء..

كل شخص مات أو جرح أو تأذى بسبب التمييز الأعمى..

كل أب سافر خلف البحار للبحث عن اللقمة الحلال لأسرته...

كل جندي استشهد دفاعاً عن وطنه راوياً الأرض بدمائه الطاهرة..

إهداء..

أهدي هذا العمل في البداية إلى خالي الغالي والعزيز الدكتور محمد علي سعيد، كما أهديه بالأساس إلى جميع الأصدقاء.. وأخص بالذكر "زياد «كما في الرواية»" الذي لم يعد له أثر فوق هذه الأرض التي نتقاسمها فيما بيننا.. بعد أن سقط شهيداً وتلاشت جثته في قاع المحيطات!.. ربما كانت البحار أكثر رحمة!

طرد من تلك الأراضي بسبب قوانين من صنعنا.. حائراً بين نارين.. نار الهروب بقوارب الموت لطلب اللجوء.. ونار العودة للديار والحرب في وطنه.. ولكنه فضل الهروب الى عالم آخر بلا عنصرية أو حقد أو حرب.. فاراً من تلك النزاعات ورصاصات الغدر في بلاده!

عندما تصل العنصرية إلى أن نميّز أنفسنا بالعلاج وحق الحياة ..

يجب أن نتوقف ونراجع أنفسنا قليلاً..

بلاسيبو

خلقت الأيام متشابهة..

ولكن نحن الذين ميزوا تلك الأيام..

نحن من صنعنا الجمعة السوداء..

فلو كان الأسود يدل على الدناءة..

لما تزين الحجر الأسود بذلك اللون..

ولما كان أصل الألماس النقي الثمين من الكربون الأسود..

نحن من ميزنا الـ "بِلَاسِيبُو" وعالجنا به أنفسنا من الوهم!

بلاسيبو

إن كنت ممن يعيشون حياة ورديّة..

فلا أنصحك بمتابعة القراءة!

ربما كان واقع الرواية.. أصدق من خيال الحياة..

صباحكم أبيض.. لا أسود!

Ξ①Ξ

المَوتُ مِن كُلّ مَكان

على تلك الشواطئ الهادئة.. الرمال الناعمة تغطيها المياه ذهاباً وإياباً.. تغرد الطيور سابِحةً بين السحاب.. والأسماك تتراقص تحت الماء.. الجميع يغرد ويغني بلا توقف.. حتى هؤلاء الجالسون فوق ذلك القارب الخشبي الذي يترنح يميناً ويساراً ويتراقص على أنغام الموج المخيفة.. الأقدام تغطي أرضية القارب الممتلئ..

الجميع يغرد مع ألحان الطبيعة بلا توقف!.. ربما يخفف الغناء من رهبة الأطفال الصغار.. تكاد الأطراف العليا لذلك القارب الممتلئ تلامس المياه.. على خلاف براءة الأطفال.. الذين يجدونها أشبه برحله بحريه فوق ضفاف النيل.. الكبار ينظرون للأعلى راجين من الله الوقوف بجانبهم.. البحر يحاصرهم يميناً ويساراً.. لا وجود لليابس أبداً.. الأزرق يملأ المكان!.. فحتى السماء قد تزينت بلونها الأزرق.. لا أحد يريد التحدث خوفاً على مشاعر الأطفال..

سألت تلك الطفلة البريئة والدتها:

- أمي.. هل حقاً سنلتقي أخيراً بأبي وأخي في "استراليا"؟

- أجل يا حبيبتي.. بإذن الله سنلتقي بهم.. وسنحتفل بيوم ميلادك جميعاً.. ونأكل الكعك ونطفيء الشموع كما كنا نحتفل سابقاً.

بعيون متوهجة تملؤها السعادة من الطفلة ردت:

- أمي لا أريد كعكاً أو شموعاً.. لا أريد أي شئ من هذه الدنيا.. حتى وطني لا أريده!.. أريد فقط أن نجتمع من جديد فقط.. في أي مكان كان.. حتى ألعابي في منزلنا هناك.. لا أريدها!

حاولت الأم مسك دموعها المسجونة خلف تلك العينين.. لا تستطيع أن تحضن ابنتها أو حتى أن تخرج مشاعرها.. فأي حركة بسيطة.. قد تسقطهم جميعا تحت تلك الأعماق المخيفة..

بدأت الدموع تتساقط من عيني زياد وبقية الرجال.. دموع يملؤها النقاء والطهارة.. ربما كانت تلك المرة الأولى التي يبكي فيها هؤلاء الرجال!..

قاطعهم ذلك العجوز الذي حاول أن يبتسم وعيناه قد اِغْرَوْرَقَتْا بالدموع:

- هيا يا شباب ويا فتيات.. لم توقفتم عن الغناء؟.. هيا لنغنّ تلك الأغاني من جديد.. ولكن بصوت منخفض.. حتى لا نوقظ أمواج البحر الغاضبة.

نظر زياد الى القدم اليمنى للعجوز وهو يقول:

- جدي.. عندما نصل الى ذلك المكان.. وأحصل على ترخيصي الجديد لممارسة الطب، ستكون أنت أول من أعالج قدمه.

- شكراً لك يا بني.. هذا لطفٌ كبير منك.

بدأ الجميع بالغناء.. الجميع يغني كبيراً وصغيراً.. ملتحياً ومن وشم على يديه بالصليب.. الأمواج الهادئة بدأت تتراقص مستمتعة بذلك اللحن العذب.. والأسماك بدأت تتراقص بالأعلى.. ثم تغطس من جديد.. الطيور تتمايل في السماء مغردةً على ألحانهم..

"البحر غدار".. بالتأكيد أن الجميع قد سمع تلك المقولة.. الجميع قلقون يتصببون عرقاً من التوتر لا من الشمس.. بدأ الماء يتسلل من حافة القارب الى الداخل.. القلوب تنبض متسارعة بلا توقف.. ربما اقتربت لحظة الوداع!

الجميع بدأوا يدعون ربهم بطريقتهم العفوية.. منهم من بدأ ينطق الشهادتين بخوف.. وأحدهم بدأ يرسم الصليب فوق صدره.. الجميع

بدأوا سماع تلك الصافرة الصاخبة.. التي هزت بضجيجها هدوء البحر.. السماء بدأت تغيم بالسواد.. اختبأت الشمس ولم يعد يراها أحد.. ظلمات الليل عمت الأرجاء سريعاً وقت الظهيرة!

صرخ أحدهم بعيون جاحظة:

- انظروا.. انظروا جميعاً.. ماذا سنفعل.. سنموت..

بدأ الجميع بالالتفات الى ذلك الجسم العملاق.. الشمس تختبئ خلف ذلك الجسم المرتفع.. الدخان الأسود بدأ يملأ تلك السماء الصافية.. وصافرات الانذار المخيفة التي تصم الآذان.. لا أحد يرى نهاية لذلك الجسم الضخم المتجهة اليهم!

قاطع ذلك العجوز صدمتهم صارخاً بغضب:

- هل سنبكي كالنساء.. هيا ماذا تنتظرون؟.. قوموا جميعاً بالتجديف سريعاً قبل أن تسحقنا تلك الباخرة العملاقة.

الطاقم في الأعلى يتحركون راكضين نحو قائد السفينة.. الجميع يركضون يميناً ويساراً.. الضجة عمت الأرجاء بالأعلى..

أحد الطاقم ملتقطاً أنفاسه بصعوبة وهو يقول "بالانجليزية":

- سيدي "الكابتن".. هاه هاه هاه.. سنصطدم لا محالة.. هاه هاه.. لقد قمنا بتوجيه حاملة الطائرات "يو إس إس رونالد ريغان" كما أمرت الى أقصى اليمين.. ولكنهم يجدفون بذلك الاتجاه.. ماذا نفعل يا سيدي؟

نظر اليهم الكابتن بالأسفل ثم قال "بالانجليزية" وهو يفكر:

- إذا اتجهنا نحو الاتجاه المعاكس.. ستكون نسبة الاصطدام أكبر.. أكملوا الانعطاف بنفس الاتجاه ولا تتوقفوا..لقد اتخذت القرار وسنكمله حتى لو كان خاطئاً.

قاطعه ذلك الرجل من الطاقم بخوف:

- سيدي.. ولكن.. سيمو..

قاطعه الرُّبان بغضب وهو يصرخ:

- نفذ ما قلته أيها المساعد.. لم يعد هناك وقت للتفكير!

صرخ مساعد الرُّبان بأعلى صوت مؤدياً التحية:

- أجل.. علم وينفذ.

في الأسفل الجميع يجدف بكل قوة.. حتى بدأت حاملة الطائرات تغطي رؤوسهم بالأعلى.. كناطحات السحاب العالية التي تخترق جو السحاب..

أمسك ذلك العجوز ضاماً الطفلة بين صدره قائلاً بدموعٍ متساقطة:

- لا تخافي يا صغيرتي.. ستصلين أنتِ ووالدتك الى "استراليا".. وستجتمعون جميعاً من جديد.

ثم نظر الى السماء يدعو بتضرع والدموع تتساقط من عينيه:

- يا رب.. بحق تلك الطفلة الصغيرة.. أنقذها هي ووالدتها.. خذني أنا بدلاً منها فلم يعد في العمر بقية!.. لقد اشتقت الى أسرتي عندك في الجنة..

بدأ البعض يقفز من ذلك القارب.. محاولين الهرب والنجاة بأرواحهم..

نظر زياد الى العجوز الذي يحتضن تلك الفتاه بين ذراعيه قائلاً بحزن:

- جدّي.. يجب أن نقفز لا فائدة!

سلم الجد الفتاة الصغيرة لزياد قائلاً:

- خذ الفتاة وأمها وأخاك وانقذهم.. هيا لا وقت لدينا!.. هيا لنقفز جميعاً الآن.

قفز الجميع ولم يعد أحد على متن القارب الا ذلك العجوز.. قرر أن يواجه الموت السريع.. فلن يتحمل مشقة الغرق بهذا السن!.. وبدأ بتوديع زياد والطفلة وأمها..

اقتربت حاملة الطائرات أكثر.. حتى اصطدمت بذلك القارب وحطمته الى أجزاء متاثرة!.. وأغرقته تحتها كفيل يدهس فأراً بلا مبالاة..

تغلغلت الناقلة البحرية بين الجميع.. وبدأ الجميع بالأسفل يتناثرون يميناً ويساراً بتلك الأمواج الصناعية التي صنعتها مقدمة السفينة.. الجميع غاطسون وسط الماء.. الأزرق من كل مكان!..

مرت الدقائق زاحفة.. وبدأت الدماء تنبعث من محركات الناقلة.. ثم توقفت الناقلة وسط اندهاش الجميع! الجثث بدأت تتوالى من الأعماق طافية على السطح!..

سأل الرُّبان بالأعلى طاقمه بغضب:

- من أعطى الأمر بالتوقف!

أجابه المساعد متأثراً رامياً بسترات النجاة بالأسفل:

- أنا من أمرتهم بالتوقف.. ألا ترى هؤلاء الأطفال الذين سيفارقون الحياة!.. هناك من يصرخ بالأسفل طالباً المساعدة.. ألا يسمع قلبك ذلك النداء!.. أنا أب ولدي أبناء ينتظرون قدومي.. هل تنتظر أن آتي اليك لأخذ أوامر بانقاذ حياة أحدهم.. هل هذا ما تعلمناه بالبحرية الأمريكية!.. انظر الى ذلك العلم بالأعلى فقط.. دعنا نفعل شيئاً واحداً صحيحاً في حياتنا!

نظر الرُّبان الى علم "أمريكا" بالأعلى، ثم أغمض عينيه قليلاً.. ثم قال بهدوء:

- هل تريدهم أن يكتبوا بالصحف ونشرات الأخبار.. أن امريكا قتلت هؤلاء الأبرياء بحاملة طائراتهم، هل هذا ما تريده؟.. تشويه سمعتنا!

ثم تابع كلامه بغضب وانفعال:

- مليارات الدولارات ندفعها سنوياً.. من أجل ابقاء ذلك العلم نظيفاً.. مئات المنظمات الحقوقية أنشأناها.. الملايين من المهاجرين واللاجئين نستضيفهم كل عام.. وأنت تريد تشويه كل ذلك في لحظة واحدة.. بهدف ماذا؟.. الانسانية!.. اذهب أنت وانسانيتك الى الجحيم!

لاحظ الرُّبان عيون الجميع من حوله حائرة.. متاثرين من تلك الصدمات.. الصمت قد عم أرجاء الناقلة.. فنظر اليهم الرُّبان متأثراً وهو يقول:

- حسناً حسناً.. لقد فهمت.. كم شخصاً سينزل الى الأسفل لمساعدتهم؟

رفع أربعة أشخاص من الطاقم أيديهم بما فيهم مساعد الرُّبان.. فأجابهم الرُّبان بصوت عالٍ متحمساً:

- حسناً.. هيا.. استعدوا للنزول للأسفل يا أبطال.. سنساعد هؤلاء الأبرياء.. قوموا بخلع ملابسكم حتى تستطيعوا السباحة.

خلع الأربعة ملابسهم مستعدين للقفز الى الأسفل.. ثم صرخ الرُّبان بنفس الحماس:

- هل أنتم مستعدون يا شجعان.. عاشت "أمريكا".

وبدأ الجميع يرددون بصوت عالٍ:

- عاشت "أمريكا".. عاشت "أمريكا".

أخرج الرُّبان مسدسه من جيبه سريعاً.. وبدأ باطلاق النار على من تبرعوا بالنزول.. أقصاهم جميعاً بلا رحمة وهو يقول:

- حتى يبقى ذلك العلم يرفرف عالياً.. على بعضنا أن يضحوا بأرواحهم.. هؤلاء هم المسؤولون عن تلك الحادثة.. لذا استحقوا القتل.. هل هناك أحد بيننا يؤنبه ضميره؟

صرخ الجميع بصوت عالٍ:

- لا أيُّها الرُّبان.

- جيد.. ليمسك الجميع بجثثهم ويلقيها في البحر.. الجميع سيشارك.. لقد ماتوا غرقاً في احدى مناوراتنا العسكرية كما ترون.. ولم نستطع للأسف إنقاذهم!.. إنهم شهداء الوطن وسنقوم بتكريمهم!

ثم أشار لأحدهم وهو يقول:

- أنت هناك.. قم بأخذ الشارة الخاصة بالمساعد من ملابسه.. أنت مساعد الرُّبان الجديد.

- شكراً يا سيدي على تلك الثقة.

- هيا أعطهم أوامر بالتحرك.. لا نريد التأخر أكثر من ذلك!

صاح المساعد بصوته:

- هيا جميعاً.. ليستعد الجميع.. قوموا بتشغيل المحركات من جديد.. سننطلق الآن ونكمل طريقنا.

حاولت مياه البحر جلب المساعدة.. تُسيّر السفن القريبة بأمواجها الى ذلك المكان.. فالبحر لم يتحمل تلك القسوة.. ربما لم يكن البحر غداراً كما يقولون!.. بل قلوبنا هي المشبعة بالغدر والمصالح..

مرت السفن الضخمة وناقلات النفط.. الجميع يلوذون بالفرار من مسرح الجريمة!.. لا أحد يريد توريط اسم بلاده في تلك الجريمة البشعة.. أو ربما خافوا من تلويث قمصانهم الحريرية.. بتلك الدماء العطرة التي غطت سطح البحر..

٢

نِيرَانٌ صَديقَة

حينما تكون طفلاً صغيراً في المرحلة الاعدادية، من المستحيل أن تقابل أحدهم.. ويخبرك بأنه لم يستمتع بتلك الطفولة.. حتى وإن كانت طفولته قاسية وتعيسه، ستجده قد حول تلك التعاسة.. الى عالم آخر مليء بالسعادة..

إن أول يوم ذهب فيه حليم الى تلك المدرسة "مدرسة عمرو بن العاص".. يكفي فخامة ذلك الاسم العظيم .. إنّه "داهية العرب"، لقد كان ذلك يوماً غامضاً جداً، فبينما كان يقف حليم في طابور الصباح، حاملاً تلك الحقيبة الفارغة.. حتى اقترب منه أحدهم ممسكاً بعصا غليظة..

صارخاً بصوت عالٍ وهو يلوح بعصاه:

- ألا تفهم أيها الغبي، قف على النقطة البيضاء الموضوعة على الأرض.

تضايق حليم كثيراً ذلك اليوم.. حتى أنه قرر عدم الذهاب في الغد.. والبقاء في المنزل، وعندما عاد حليم الى المنزل.. ذهب الى والدته حزيناً.. طالباً منها أن يتغيب في الغد عن المدرسة..

أجابت والدته باستغراب:

- حليم، أنت لم تقضِ الا يوماً واحداً، لماذا هذا الطلب؟

أخبرها حليم عن ذلك الرجل الذي ضايقه في الصباح.. فما كان من الأم الا أن ضحكت وهي تقول:

- هل ستدع شخصاً لا قيمة له ينتصر عليك.. ويجعلك تكره المدرسة تلك المدرسة الجميلة! اصبر فقط حتى نهاية الأسبوع.. وإن لم يعجبك الوضع، سأقوم بنقلك لمدرسة أخرى، وهذا وعد مني.

ذلك الثوب الأبيض.. هو الزي الرسمي في المدرسة.. فجميع الطلاب كانوا يرتدون ذلك الزي، في اليوم التالي.. نزل حليم من السيارة وقلبه يرتجف خوفاً، ظل يفكر مخاطباً نفسه "لا أريد الذهاب، ولكن .. لقد غادر والدي ولم يعد لدي خيار آخر"، إنه نشيد تحية العلم.. الجميع يقف متجمداً في مكانه.. فقط أوراق الشجر تترنح يميناً ويساراً.. انتهى

طابور الصباح.. وذهب جميع الطلاب الى فصولهم الدراسية، بينما يجلس حليم بجانب صديقه الجديد "كريم".. يخبره عما جرى معه بالأمس..

ضحك كريم وهو يقول:

- ذلك الرجل الذي ضايقك بالأمس.. هو الأخصائي الاجتماعي الخاص بالمدرسة.. وقد تم نقله اليوم وجاء شخص جديد ليحل مكانه.

لم تكن الدنيا تسع حليما من الفرحة في تلك اللحظة الفريدة، نظر الى السماء وشكر الله.. على أنه قد انتقم له من ذلك البغيض.. الذي جعله يكره تلك المدرسة من أول يوم له.

مرت الأيام.. وبدأ الأصدقاء يتكاثرون الواحد تلو الآخر، لقد كان حليم اجتماعياً كقطع السكر.. التي ما ان سقطت على سطح الأرض.. حتى يأتيها جيوش النمل من كل مكان..

حتى أتى ذلك اليوم.. وبدأت نيران الغيرة تشتعل في قلب أحدهم.. ذهب غاضباً الى حليم وقام بإهانته بأصله، إنه ليس شيئاً غريباً عندما يهينك أحدهم بأصلك.. فأنت لست في وطنك، ولكن أن تتم إهانتك أمام أصدقائك الكثر.. فذلك يستوجب رداً سريعاً.. أسرع من

أن يرتد اليك طرفك، وفجأة.. جاءت صفعة رد الاعتبار، فيبدأ بعدها العراك، حتى دخل المعلم الى الصف.. وأمر بأن يذهب الاثنان الى الأخصائي الاجتماعي، وصل حليم وزميله الى غرفة الأخصائي، كان الاخصائي ممسكاً ببعض الأوراق مسرعاً، ثم نظر اليهما والى ملامحهما، أزرار مقطوعة وثياب مجعدة والحمرة تملأ وجههما، ولكن فجأة بدأ ذلك الفتى يبكي دون أية أسباب..

نظر الأخصائي الى حليم يتوعده:

- أقسم بالله عندما أعود سأتفاهم معك جيداً، انتظراني هنا!

مرت الدقائق كالساعات، حتى عاد الأخصائي وبدأ بتوبيخ حليم.. مخرجاً ورقه من درج المكتب قائلاً:

- بسرعة ما هو اسمك، فليس لدي وقت.

طلب منه حليم أن يتكلم ويدافع عن نفسه.. ولكنه رفض وسلمه تلك الورقة،إنها فصل اسبوع من المدرسة.. مع استدعاء ولي الأمر، أخذ حليم تلك الورقة، وعاد الى صفه آخذاً حقيبته..

الجميع يسألون حليم بشغف:

- ماذا جرى يا حليم؟.. لمَ تأخذ حقيبتك؟

عاد حليم بعد ذلك الى غرفة الأخصائي كما طلب منه، فأمسك الاخصائي بالهاتف.. طالباً من حليم أن يتصل بولي أمره حتى يأخذه، رد أبو حليم على الهاتف.. وبدأت عليه علامات الانشغال هو أيضاً.. وطلب من حليم أن ينتظر بنفس المكان الذي ينتظره فيه كل يوم بعد انتهاء المدرسة..انها الاستراحة الخاصة لحليم بعد الدوام المدرسي.

الجميع كانوا يذهبون بعد انتهاء الدوام الى الباصات والسيارات.. عائدين الى منازلهم، ولكن حليماً وأخاه الصغير الذي يدرس بالمدرسة الابتدائية القريبة.. منزلهما بعيدٌ جداً.. لدرجة أن المدرسة رفضت تسجيلهما في الحافلة المدرسية.. لبعد تلك المسافة.. فهما ليسا من أبناء الوطن!!

ذهب حليم الى تلك الاستراحة التي لا تغلق أبوابها، توضأ حليم ودخل يصلي "تحية المسجد" و"صلاة الظهر".. وانتظر أخاه حتى انهى دوامه، مشاركاً حليم الانتظار بالمسجد، لم يمر الوقت كثيراً، حتى أتى والدهما بالسيارة، واصطحبهما معه الى المنزل.

ظل الصمت يرافق حليما الى أن وصلوا الى المنزل، أخرج حليم تلك الورقة لوالده خائفاً وأخبره بما حصل..

نظر الأب اليه غاضباً وهو يقول:

- لماذا لم تشرح لذلك الأحمق الذي لا يفهم.. أنت لم تذنب وكنت تأخذ حقك ممن أهانك، حتى لو أخطأت فهو أيضاً كان يجب معاقبته أيضاً.

أجابه حليم بألم:

- لم يعطني فرصة حتى لأتنفس !

بدأ الأب بالتوعد لذلك الأخصائي قائلاً:

- سوف آتي معك في الغد وأقابل ذلك الشخص وأخذ لك حقك.

إنها لحظة فارقة في حياة أي طفل، فإما أن تمسك بيده.. وتجعله يثق بنفسه في بداية مشوار الحياة.. وإما أن تخذله في تلك اللحظة .. ولكن ستجعله يفقد الثقة بنفسه وبمن حوله.

أخذ حليم تلك الورقة واقفاً أمام تلك المرآه يتساءل..

حتى نظر الى رأسه وفجأة قال:

- لقد فهمت الآن لما حكم على ذلك الشخص دون أن يستمع الي.

كان رأسه يعكس ضوء الغرفة، فقد حلق شعر رأسه بالكامل منذ يومين، قد تنخدع بملامح الصُّلع العدوانية.. دون أن تنظر الى قلوبهم أو تتحدث معهم، ولكن حليم لم يتوقف عن الحديث لنفسه:

- فلماذا حكم علي فقط من المنظر والشكل.. وصدق تلك الدموع الزائفة.. بل ولم يعطني حتى مجالاً كي أدافع عن نفسي، على كل حال أنا لست قلقاً.. فوالدي سيأتي معي بالغد ليدافع عني.

جاء اليوم التالي، كم كان حليم يحلم بتلك اللحظة بفارغ الصبر، إن من أسعد لحظات المرء عندما يأخذ حقه من قويٍ قد ظلمه.

ذهب حليم مع والده.. والأرض تهتز من تحت قدميه.. حتى وصلا الى غرفة الأخصائي في المدرسة، لقد تغير وجه الأخصائي تماماً.. وبدأ بالترحيب بوالد حليم بحرارة:

- تفضل بالجلوس يا "باشا"، هل تريد القهوة أم الشاي؟

طلب أبو حليم من ابنه الخروج من الغرفة قليلاً والانتظار خارجاً، لم يكن حليم يعلم السبب حينها، انها سياسة حكيمة وتكتيكٌ فريد.. فليس من الذوق أن تعلم شخصاً كبيراً مبادئ الاحترام أمام طفل صغير.

مرت الدقائق حتى نادى الأخصائي حليماً باحترام.. وما إن دخل حليم الغرفة حتى سأله الأخصائي:

- هل حقاً ما قاله لي والدك الآن، هل بالفعل أنت ماهر باستخدام الحاسوب، وتستطيع عمل العروض التقديمية "الباوربوينت"؟

حرك حليم رأسه مبتسماً:

- أجل يا أستاذي، إنه شيءٌ بسيط للغاية..

تغيرت تلك الملامح الغاضبة بالأمس.. الى ابتسامة عريضة وكبيرة:

- لماذا لم تخبرني مسبقاً بذلك يا صديقي.. اجلس اجلس لمَ أنت واقف، لقد كنت أبحث عنك كل ذلك الوقت، أريدك أن تأتي الى مكتبي كل يوم.. في حصص الرياضة والموسيقى وأي وقت فراغ لديك، فلدينا مسابقات كثيرة.

نظر أبو حليم الى ابنه ضاحكاً:

- أنت المخطئ يا حليم، هل رأيت كيف كان يبحث عنك الأستاذ مصطفى.. وأنت مختفي كل ذلك الوقت، هيا سلم على أستاذك واذهب الى صفك.. وافعل ما طلبه منك الأستاذ مصطفى.

فعل حليم ما طلب منه والده.. وذهب الى الفصل والانتصار يثلج قلبه الذي بات محروقاً بالأمس..

تمر الأيام .. حتى أصبح الأستاذ مصطفى صديق حليم المقرب.. فلا يمر يوم واحد الا و حليم في غرفته، حتى وإن خانه الانشغال في يوم من الأيام.. كان الأستاذ يرسل مبعوثاً خاصاً الى الصف.. ليقوم باستدعاء حليم بورقة رسمية، لقد اعتاد المعلمون ذلك.. فمتى كان يُدق باب الفصل.. حتى يؤشر المعلم له بعينه للخروج، دون أن ينظر في ورقة الاستئذان حتى!

أن تكون ماهراً باستخدام الحاسوب في ذلك الوقت وبذلك السن.. فهو شيءٌ عظيم للغاية.. فعصر نهاية التسعينات.. لم يشهد تلك الطفرة الالكترونية التي نراها اليوم، فلم يكن هناك تلك الحواسيب المحمولة.. ولا أنظمة "الأندرويد" والهواتف الذكية المتصلة بالانترنت.. ولا كاميرات المراقبة اللاسلكية.. ولا شبكات "الواي فاي"، ولا الجيل الخامس من شبكات المحمول.. إن من يمتلكون ذلك "الانترنت" في ذلك الوقت.. يعدون على أصابع اليد الواحدة..

من ضمن الأصدقاء المقربين لحليم.. معلم التاريخ.. بالرغم من أنه المواطن الوحيد في تلك المدرسة.. الا أنه مثقف جداً، فقد كان دائماً يذهب

اليه حليم في وقت الاستراحة المدرسية.. يسمع منه أحلى القصص التاريخية الحقيقية.. التي كان يزينها بأسلوبه المشوق، لا زالت تلك العبارة التي قالها الأستاذ منصور عالقة في ذهن حليم:

- هل تعلم يا حليم..عدد الذين تخطت ثروتهم خط المليون في الدولة.. لقد أصبحوا مئة شخص تقريباً، إنه انجاز كبير في تلك الصحراء!

في يوم من الأيام.. وعندما دخل حليم الى غرفة الأستاذ مصطفى.. وجد مكتباً جديداً بجانبه.. وفوق ذلك المكتب حاسوب مجهز بطابعة و"الماسح الضوئي".. نظر الأستاذ مصطفى الى حليم مبتسماً:

- ما رأيك في ذلك المكتب الجديد يا أستاذ حليم؟

يالها من مفاجئة عظيمة.. فالآن أصبح لحليم مكتبه الخاص.. مجهز بكل الامكانيات.. والتي ستساعده بتلك المسابقات والأنشطة التي يشارك فيها، لا أحد يدرك صعوبة أن تستخدم "الماسح الضوئي" في ذلك الوقت..

أن تحول تلك المستندات الورقية والصور الورقية.. الى صور رقمية في حاسوبك باستخدام الماسح الضوئي.. إنه شيء يشبه الحلم في ذلك

الوقت.. لقد اتسعت دائرة الأنشطة الخاصة بحليم.. حتى طلب من أحد معلميه أن يقوم باعداد الدرس الجديد بنفسه.. وشرحه بدلاً منه باستخدام الحاسوب..

لم يفوت الأستاذ مصطفى تلك الفرصة.. حتى حضر تلك الحصة بالكاميرا الخاصة به.. وقام بتصوير حليم.. وعلق صورته بلوحة ضخمة في واجهة المدرسة.. وتحتها جملة "المعلم الصغير"، لقد فاجَأ ذلك الفتى جميع المعلمين.. حتى الوفود التي كانت تأتي من الوزارة للتفتيش.. كانوا يذهلون من تلك الأنشطة.. بل ويسألون عن ذلك الطالب الموجود بالواجهة ..

من أكثر اللحظات المميزة في ذاكرة حليم، تلك اللحظة.. عندما سأل معلم الرياضات عن سؤال في قوانين الدوائر .. بعد وقتٍ قليل يرفع أحد الطلاب الأذكياء يده.. ويجيب الاجابه المعتاده، ولكن حليم أخبر المعلم أن هناك حلاً آخر، وقف وبدأ يشرح ذلك الحل للمعلم..

كادت عينا المعلم تخرج من رأسه قائلا:

- ما هذا يا حليم، قفوا جميعاً وصفّقوا لزميلكم..

وبدأ يصفق هو أيضاً مما رآه.. وعيناه تذرفان دموع الفرح أن هناك موهبة موجودة بينهم.. ولكن للأسف مدفونه وتريد من يمسك بيدها .. إنه قانون جديد في قوانين الدائرة! لم يكتفِ المعلم بهذا القدر.. بل أمر الطلاب أن يصفقوا مرة أخرى لتحية حليم من جديد..

وبينما يتمشى حليم في ساحة المدرسة وقت الاستراحة.. حتى ناداه أحد المعلمين، فجلس معه في غرفة معلمي الرياضيات، وطلب منه أن يشرح تلك الطريقة التي شرحها.. ثم قال:

- صحيح أنّك لست من الأوائل في هذه المدرسة.. ولكنك تمتلك في رأسك كنزاً ثميناً لا يمتلكه طالب آخر، لمَ لا تشارك معنا في مسابقة الرياضات على مستوى الدولة؟

- آسف يا معلمي لن أستطيع.

- ما السبب يا حليم؟

- لدي مواد جديدة قد أضيفت الى دراستنا.. وأصبح الوقت ضيقاً للمشاركة بجميع الأنشطة.

من ضمن تلك المواد مادة الجغرافيا التي يدرسها الأستاذ "محمود الشرياني"!

ذلك الاسم لن ينساه حليم طيلة حياته، فبالرغم من ابتسامته السامة.. الا أن حرارة الحقد كانت تملأ المكان حراً.. فوق الحر المعتاد في الصيف الحارق لهذه المدينة.

لم يكن الأستاذ الشرياني يأبه بحليم ولا يريد سماع مشاركاته، ولازال ذلك السبب غامضاً، ولكن أنت لست مسؤولاً عن كره الناس أو إعجابهم بك، بل أنت مسؤول فقط أن تفعل ما أنت مقتنع به، ولمَ العجب! فقد اختلف الناس على وحدانية الله ووجوده.. فليست كل العقول سليمة حقاً.

انتهت السنة الدراسية وتسلم حليم شهادته.. ليصعق من نتيجة مادة الجغرافيا التي كاد أن يرسب فيها بنسبة (٦٤٪)، لقد قتل ذلك الخبر فرحته بالعطلة الصيفية، ولكن أكثر ما كان يسعد حليماً هو ثقة والديه

القوية به، لم يشكك والده بقدرته لحظة واحده.. وقدم تظلماً من نتيجة ابنه حليم بناء على طلبه..

مرت الأيام حتى اتصلت ادارة المدرسة بوالد حليم طالبين مجيئة، وما إن حضر والد حليم وأجلسه مدير المدرسة.. حتى أخبره المدير ببرود:

- يؤسفني أن أخبرك أنّ نتيجة حليم صحيحة.. ولا يوجد لدينا أية أخطاء والحمد لله، ويؤسفني أيضاً أن أخبرك أن تلك النتيجة.. تعني أنه كان راسباً بالأساس.. ونحن من أضفنا له بعض درجات الرأفة.. مساعدة وكرما منا كما تعلم فهم أبناؤنا، ولكن لا تقلق فهو مازال صغيراً.. وتستطيع أن تأخذ بيده في المراحل المقبلة.

صدم الأب من ردة فعل المدير قائلاً:

- ولكن ألا ترى نتيجته بالمواد الأخرى.. والتي لا تقل عن (٩٥٪) والدرجة الكاملة بالرياضات، أعتقد أن هناك أخطاء قد تكون حدثت دون قصد، ثم إن حليماً ليس طالباً عادياً، أنجازاته وصوره المعلقة بالمدرسة.. كافية أن تتحدث عنه.

تدخل وكيل المدرسة غاضباً:

- اسمع يا سيدي، ليس لدينا أخطاء بقصد أو بدون قصد، اسمح لي أن أقول أن ابنك فاشل ولم يدرس، وما فعله من انجازات وأنشطة.. نحن

من ساعدناه وأخذنا بيده.. حتى وصل لما هو عليه الآن، وإن كنت تريد أن تتأكد أكثر.. يمكنك الذهاب للوزارة الآن.. وطلب لجنة خاصة لمراجعة ورقة ابنك.

رد أبو حليم منزعجاً:

- ومن قال لك أنني لن أذهب، ولكن أريد أن أخبرك شيئاً قبل أن أرحل، إن كنتم فعلاً أنتم من ساعدتم ابني للوصول لذلك المستوى، فلمَ لم تفعلوا ذلك مع بقية الطلاب، لمَ لم تفعل ذلك مع ابنك.. أليس هو أيضاً في هذه المدرسة! إن ما وصل اليه حليم بسببي أنا فقط.. وبسبب ثقتي به، وسأثبت لكم هذا قريباً.

ما إن خرج أبو حليم من المدرسة حتى اتصل بالمنزل:

- السلام عليكم .. أين حليم؟ أريد التحدث اليه بسرعة.

رد حليم خائفاً وقلبه يخفق بقوة:

- أهلاً يا والدي، ماذا حدث معك؟

- أجبني بسرعة.. لأنني الآن في طريقي الى الوزارة، هل أنت واثق من إجاباتك في تلك المادة؟

رد حليم بكل ثقة:

- طبعاً.. أنا واثق (١٠٠٪) أنها ليست نتيجتي الحقيقية.

هدأ الأب قليلاً وهو يقول:

- أقسم لك يا حليم إن كان كلامك صحيحاً.. سأجعل الجميع في تلك المدرسة يندمون أشد الندم.

رغم بساطة ذلك الأمر.. الا أنه كان تحدياً قوياً واضحاً.. بين ذلك الأب الذي لا يملك الا ثقته بحليم.. وبين جميع طاقم إدارة المدرسة.. الذين لا يريدون التنازل عن كبريائهم.

وصل أبو حليم الى وزارة التربية والتعليم.. ووصل الى قسم الشكاوى يروي ما حدث.. حتى سمعه بالصدفة مجموعة من الموظفين كانوا واقفين..

تحدث اليه أحدهم:

- مرحباً يا سيدي أنا الأستاذ رمزي.. موجه مادة الاجتماعيات وهؤلاء زملائي، الأستاذ شوقي والأستاذ علي، لقد سمعناك صدفة تشتكي عن شيء يخص مادة الاجتماعيات، هل تسمح لنا أن نسألك عن اسم ذلك المدرس؟

ليرد الأب متردداً:

- اسمه "محمود الشرياني" ..

بدأ الجميع بالضحك مرددين تلك العبارات:

- أجل إنه هو..

- ألم أقل لك يا أستاذ شوقي..

- صدقني لقد كسبت الرهان..

- الغداء عليك اليوم.. لن أتنازل أنا و علي ..

سأل أبو حليم مندهشاً:

- ولكن ما سبب ضحككم!

رد الأستاذ علي معتذراً:

- أسمح لنا يا سيدي نعتذر لك، ولكن مبدئياً اسم ذلك المدرس هو أحمد الشرياني، على كل حال سنأتي نحن الثلاثة معك.. ونراجع تلك الورقة.

رد أبو حليم قلقاً:

- لا داعي أن تأتوا جميعاً.. فواحد فقط يكفي لذلك!

ضحك الأستاذ رمزي قائلاً:

- إن "الشرياني" حبيبنا جميعاً.. لذا يجب أن نأتي جميعاً، ونقوم بالواجب معه.

وصل الجميع الى باب المدرسة، حتى عمَّ القلق أرجاء المدرسة بالكامل، لقد ظنت الإدارة أن كلمات الأب.. لم تكن الا لحظة إنفعال، وانه لن يفعل شيئاً، ولكن أول ما طلبته اللجنة.. الدخول الى قاعة الأوراق السرية.. ومراجعة تلك الورقة الخاصة بحليم، ليطلبوا أيضاً حضورالأستاذ الشرياني والأب والادارة فقط في غرفة مغلقة .. بعد ان انتهى الموجهون من المراجعة وخرجوا من الغرفة.. بدأ الأستاذ رمزي الحديث:

- في البداية نعتذر عن الازعاج الذي قد سببناه في المدرسة.. وللطاقم الاداري في المدرسة.

رد وكيل المدرسة منفعلاً في لحظة من الانتصار:

- هذا عملكم يا أستاذ رمزي.. وهذا عملنا أيضاً أن نساعد الوزارة، المهم أن نبين للأهالي أننا لا نميز أحدا على حساب الآخر، وأن جميع الطلاب هم أبناؤنا، والجميع يأخذ حقه كاملاً بل وأكثر..

ليرد الاستاذ شوقي باستهزاء:

- بل وأكثر! .. هل تعلم يا سيادة الوكيل.. كم يستحق هذا الفتى بعد مراجعة ورقته ثلاث مرات.. بدقه متناهية من ثلاثة موجهين للمادة! .. إنه يستحق (٩٤٪).. ليست درجة.. أو خمسة.. أو عشر درجات.. بل ثلاثين درجة، هل تعلم ما معنى هذا الكلام يا أستاذ شرنوبي؟

بدأ العرق يتصبب من الجميع.. ولم يتحمل الوكيل لهيب تلك الكلمات.. وغادر الغرفة متعلاً بأن لديه اتصالا مهماً .. أما مدير المدرسة فكاد يأكل الأستاذ شرنوبي بعينيه.. التي لم تفارق وجه الأستاذ الشرياني.

نظر مدير المدرسة خجِلاً الى أبي حليم قائلاً:

- في الحقيقية يا أبا حليم.. نحن جميعاً أخطأنا.. وليس عيباً أن يعترف الانسان بخطئه، بل الخطأ أن يستمر به، أنا أعتذر بالنيابة عن الجميع لك ولابني حليم عما حدث.. وسأعوضه بطريقتي الخاصة.

ثم بدأ الجميع بالاستئذان..

أمسك الأستاذ رمزي بيد أبي حليم جانباً:

- أنا معجب بثقتك بابنك حليم.. وأعلم أنه لم يكن شيئاً بسيطاً، أبلغ تحياتي له كثيراً.. فليحفظه الله لك.

لم ينتظر الأب حتى اتصل بابنه حليم.. ويبلغه بكل ما حدث، إنها لحظة عظيمة.. حتى الطيور في السماء كانت تغرد سعيدةً لما حدث، إن

أعظم لحظة في الحياة.. هو أن ينتصر المظلوم من ظالمه.. بعد أن تجرع من كأس الظلم في أوقات الضعف، ربما يسود الظلم قليلاً ويصبح هو الأقوى.. ولكن لابد للعدل أن يعود من سباته من جيد..

ولكن مالم يكن يتوقعه حليم.. أن الشرياني قد غير طريقته تماماً بعد ذهابه للسنة التالية.. فبداية كل حصة دراسية.. أصبح يسأل عشوائياً.. ولكن لم يكن عشوائياً لحليم.. فيومياً يختار حليماً ليسأله.. حتى ذلك السؤال لم يكن عشوائياً.. بل سؤالٌ لا يمكن الاجابة عليه.. لم يتركه يوماً واحداً يهنأ دون سؤال، حتى عندما كان يخرج حليم من الاختبارات الورقيه.. لاحظ أن ورقته الوحيدة التي كانت تختلف تماماً عن بقية زملائه، كل ذلك لم يؤثر في نفسية ذلك الصغير.. فقد أخبره والده أنه لن يستطيع أن يرسبه مهما حدث، فهو يعلم تماماً عاقبة ذلك الأمر، ولكن ما يحزن القلب فعلاً.. أن يقوم ذلك العجوز بمحاربة طفلٍ صغير.. ووضعه نداً وخصماً له بعد كل هذا الظلم!

إن كنت تستطيع العيش في وطنك.. فتلك نعمة عظيمة، وإن كنت تعيش في بلاد الغرب.. فربما ذلك أفضل من أن تعيش حياة التمييز

والتفرقة بشتى صورها، والصدمة الكبرى والضربة الموجعة.. لا تأتي الا من أقرب الأصدقاء.. بل من أبناء وطنك!.. خاصةً من كنا نتخذهم قدوة حسنة لنا.

لقد اقترح معلم التاريخ الاستاذ منصور.. تعميم التجربة الديموقراطيه في المدرسة، سيتم اختيار يوم للانتخابات.. وعمل تجربة ديموقراطية فريدة وجديدة في المدرسة.. حيث الفائز بالانتخابات من الطلاب، سيكون مدير المدرسة ليوم واحد.

ولكن من الذين سيتم انتخابهم؟ انهم ثلاثة من مواطني الدولة.. فلا يجوز أن يربح غريب أو مهاجر أو وافد.. حتى وإن كان مولوداً فوق تلك الأرض.. حتى لو كانت مجرد لعبة.. فالمواطنون فقط هم المسموح لهم بالترشح، أما الباقون فليس لهم الا أن يدلوا بأصواتهم!

إنها ديموقراطية عظيمة، ربما كان ذلك سبباً كافية للاجابة على سؤال حليم الغامض:

- لماذا كنت أخسر دائماً.. عندما اتأهل للمسابقات على مستوى الدولة!

أكبر ما قد يواجهه المرء.. هو عدم الاستقرار في المكان الذي وُلدت فيه.. فكونك غريباً.. يعني عدم أحقيتك في امتلاك المنازل أو الأراضي.. الا إذا كنت مواطناً بالطبع!

لقد تنقل حليم وأسرته كثيراً.. من منزلٍ الى آخر.. من الشمال للجنوب.. ومن الشرق الى الغرب الى مركز المدينة، إن من أصعب اللحظات الفارقة.. أن تفقد هؤلاء الأصدقاء.. الذين كنت تسكن بجوارهم يوماً ما.. وتجلسون على أرصفة الطرقات كل يوم..

ولكن الأجمل أن تبني صداقات جديدة، صداقات تختفي وتموت.. وصداقات تولد من جديد.. صداقات لا تعرف لوناً أو لهجةً أو عرقاً أو ديانةً.. حتى اللغة لم تقف عائقاً أمام تلك الصداقات..

إن أكبر جرم قد حدث فوق تلك السماوات العلا.. هو ما فعله الشيطان الأكبر.. بعد أن تكبر أمام تلك الروح التي تنبض في عجينة التراب، ولكن العجيب في الأمر.. أن ترى تلك الكتل الترابيه.. بعد أن نزلت الى الأرض ونفخت فيها الروح.. تتكبر على بعضها البعض، بل والأعجب أن تجد من هؤلاء الذين يتكبرون.. من لا يتكبر باسمه.. بل باسم أبيه أو قبيلته.

لم تكن تلك الأيام سعيدة قط على قلب حليم، فقد انفطر قلبه كثيراً، عندما رأى والدته تفارق الحياة أمام عينيه في ذلك المستشفى الصغير، لقد كانت والدته في المراحل الأخيرة من الالتهاب الكبدي "فايروس سي"، لم توافق المستشفيات الكبرى في الدولة أن تتكفل بتكاليف علاجها الباهظة، حتى وهي تحمل بطاقة التأمين الخاصة بها، والتي تسسمح بعلاجها كاملاً..

و يمسك أبو حليم بيد زوجته باكياً وهو يقول:

- لقد طرقت كل الأبواب أمامي.. واستطعت أخيراً تجميع ذلك المبلغ لعملية زراعة الكبد، لا تخافي يا أم حليم، سنجري العملية وتعودين إلينا من جديد بالسلامة..

أفاقت أم حليم من نومها العميق، وقد شعرت بيديها ورجليها تتحركان بعنف، بدون أن تتحكم فيهما، فشعرت بوجود زوجها بجوارها فحملقت في وجهه ونادته بصوت كله رجاء:

- أبا حليم.. أعلم أنه.. لا يوجد علاج.. حتى إن قمت بالعملية.. لا فائدة.. لقد اقترب أجلي.. أرجع المال لأصحابه.. وبقية المال.. احتفظ به

لحليم.. يجب أن يكمل.. دراسته.. ويكمل مستقبله.. فنحن.. تغربنا هنا.. من أجله.. هو وأخيه.. إن علمت.. أنك أجريت العملية.. أقسم أنني.. لن أسامحك..

التقطت الأم أنفاسها بصعوبة ثم أمسكت بيد أبي حليم بقوة وهي تتابع بصوتها المتقطع:

- يجب أن.. يكملا هنا.. بأي ثمن.. أياك أن تخبرهما.. بذلك الثأر.. أبقه سراً بيننا.. إن عادا.. الى مصر.. سيقومون بقتلهما.. عدني يا..

بدأت الأم بإفلات يدها، وغابت عن الوعي من جديد، تدخل الممرضة سريعاً وتطمئن على حالة أم حليم، ثم تلتفت الى أبي حليم وهي تقول:

- أحدهم بالخارج يا سيدي ويريد مقابلتك..

خرج أبو حليم من الغرفة متأثراً، فيجد أمامه أخاه جالساً على كرسي الاستراحة، وبجانبه ابنيه "حليم" و"رحيم"، لقد جلب لهما عمهما بعض الألعاب؛ لينسيهما تلك الحقيقة المؤلمة التي تحدث أمامهم، ويقوم العمُّ محتضناً أبا حليم وهو يقول:

- لقد جلبت لك خبراً سعيداً، ولكن أولاً طمئني عن حالة زوجتك..

أجابه أبو حليم والحزن يملأ وجهه:

- إنها بين الحياة والموت يا أخي، لقد غابت عن الوعي مرة أخرى.. ما هذا الخبر الذي تريد أخباري به؟

فيمسك العمُّ بكتفيه مبتسماً ثم يقول:

- لقد حصلت على مكرمة من الشيخ الذي أعمل لديه، سيتكفل بكل المصاريف الخاصة بعلاج زوجتك.. لا تخف يا أخي، ستتعالج وتعود من جديد، صحيح أنها عملية صعبة، ولكنهم هنا يمتلكون أجهزة حديثة للغاية، اطمئن ولا تقلق.. وكما اتفقنا سابقاً إياك أن تخبر أحداً بمرضها حتى لا نتعرض للحبس.. فكما تعلم أن مرضى الكبد الوبائي "سي" لا يُسمح لهم بالعمل هنا ، وقد أخفينا ذلك الأمر كثيراً فانتبه..

خرجت الممرضة من الغرفة راكضة، تنادي طالبةً المساعدة.. فيأتي أحد الأطباء راكضاً داخل الغرفة، وبعد دقائق يخرج من الغرفة مقترباً من أبي حليم وهو يقول:

- من زوجها؟

أجابه أبو حليم وبدأت نبضات قلبه تتسارع.. والخوف يسيطر عليه:

- أنا هو، ماذا هناك يا دكتور.. تكلم أرجوك؟ أعلم أن الامكانيات هنا ضعيفه..سنقوم بنقلها من هنا اليوم؟

أجابه الطبيب مطأطئاً رأسه بحزن:

- لا داعي لذلك.. لقد نفذ أمر الله، البقاء لله..

اقترب حليم من ذلك الزجاج الخارجي للغرفة، يتأمل والدته تحت ذلك الغطاء الأبيض الذي يعلو وجهها، قلبه ينقبض وتنهمر عيناه بالدموع، غير متوقع لتلك الصدمة.. كم هي مؤلمة أن يموت أمام عينيك أحد الوالدين.. بسبب عدم القدرة على تكاليف العلاج!

إنه اليوم الأول لحليم في المدرسة الثانوية، إنها المدرسة الأكبر في الدولة، كم هو محظوظ أن يتم اختيار اسمه في تلك المدرسة، إنها صدفة جميلة ان يرافقه صديقه القديم كريم في المدرسة..

ضخامة الأسوار الشاهقة.. وأسنان الأفاعي التي تلتف فوق تلك الأسوار، ما إن دخل حليم ومن معه.. حتى دقت تلك الأجراس الصاخبة، وما ان التف حليم للخلف حتى أغلقت البوابات.. ومن لم يستطع الدخول ظلّ بالخارج، تجمد جميع من حول حليم.. كأن الأرض قد أمسكت بإقدامهم، إنها تحية العلم.. ولكن عندما انتهى النشيد، وقف جميع المتأخرين طابوراً واحداً.. تحت حرارة تلك الشمس الحارقة، جميع الواقفين يتصببون دماً لا عرقاً وتبللت ملابسهم.

مضت الساعات حتى أتى ذلك الشخص من غرفته المكيفه، متزيناً بأجمل الثياب.. رائحة عطره تصل الى بضعة أميال.. حامياً عينيه من تلك الشمس وراء النظارات العاكسة.. والشر يغمر جسمه سواداً، يتبختر على الارض والشر يتدفق من تحت قدميه، نظر الى جميع الواقفين وأنفه يعلو رقابهم.. ثم صرخ مهيناً جميع الواقفين بأفظع الألفاظ، يتوعد الجميع بالفصل والعودة الى منازلهم، ولكنه لم يقصد جميع الواقفين.. فقد طلب من كل المواطنين.. الخروج من صف الوقوف ودخول المدرسة..

وما هي الا لحظات حتى اقتحمت تلك السيارة الغامضه البوابة، لا تستطيع أن ترى من بداخلها.. فالزجاج عاكس بالكامل.. فجميع ما حول السيارة.. تراه معكوساً على هيكلها اللامع، ثم نزل منها أربعة من الطلاب، فيذهب اليهم سريعاً ذلك المتغطرس.. مشيراً بيده أن يقوموا بايقاف السيارة خارجاً، ولكن نزل أحدهم من مقعد السائق.. ذاهبا الى ذلك المتغطرس، ثم أمسك بـ"عقاله" ماسحاً به الأرض..

ثم نظر لعينيه قائلاً:

- لم يعد الا "البُلوش" كي يأمرونا هنا.

لم يتخيل حليم أن يهزم أحد ذلك الشر الأسود.. ويهينه كل تلك الاهانة أمام الجميع.. ذلك المتغطرس الذي يخفي وراء تلك النظارات

الشمسيه العاكسة.. حقداً يحرق أي شئ يقترب منه، ابتسم جميع الواقفين بفرحة ذلك الانتصار.. فقد نزلت عدالة السماء من فوق، وبدأ الجميع يتساءل عن ذلك الشخص.. ثم علم الجميع أنه من أبناء الأسرة الحاكمة.

أحدهم يركض من بعيد كالفهد في البرية، بدأ يعتذر لذلك الشخص المهيب.. ساحباً ذلك المتغطرس معه الى غرفته، صارخاً بوجه الجميع بالدخول بسرعة للداخل، لقد أصبح ذلك الشخص بطلاً قومياً في عيون الجميع.. ولكن كان ذلك اليوم صدفة كبيرة، فتلك الشخصيات لا تختلط بالمجتمع كثيراً، أما ذلك المتغطرس.. فقد كُسر أنفه.. ولم يعد يستطيع تكرار ما فعله مرة أخرى..

أجمل أشكال العدل الالهي.. أن يظلم الظالم ظالماً غيره!

مرت الأيام والشهور كعقرب الثانية الذي لا يتوقف.. مازال كابوس العنصرية يطارد حليماً!.. إنه لأمر محزن أن يضعك أحد المعلمين في رأسه.. وأنت مع الأسف لا تعلم سبب ذلك الكره! رائحة الكره تفوح من الأستاذ خالد في وجه حليم.. ولا يعلم سببها! لقد أمر الأستاذ خالد جميع الطلاب باختيار شخصية اسلامية معروفة.. وكتابة تقرير عنها

وليس شرطاً أن تكون ضمن منهج نفس العام ، كل طالب أختار شخصية.. أما حليم فقد اختار أن يكتب عن ذلك البطل العظيم.. "قُطز".

الأستاذ خالد ينزل من الدرج كالعادة متجهاً الى غرفته ..فأوقفه حليم ليسلمه التقرير الخاص به.. ولكن الأستاذ خالد رفضه قائلاً:

- اختر موضوعاً آخر.. فإن هذه الشخصية غير مقررة عليك هذا العام.

أجابه حليم مصدوماً:

- ولكن كل طالب قد اختار شخصية مختلفةً عن الآخر، وكثير من الزملاء كتبوا عن شخصيات ليست في مقررنا هذا العام وقبلتها منهم !

لم يعره الأستاذ خالد أي اهتمام .. فكرر حليم كلامه مرة أخرى:

- يا أستاذي لقد قبلت من زملائي شخصيات ليست في المقرر هذا العام.

نظر اليه الاستاذ خالد بعيونه الغاضبة وهو يقول:

- لن أكرر كلامي مرة أخرى..

إنّ ما يجعل الأمر غريباً أن يعامل حليم فقط بتلك الطريقة.. أما بقية طلاب الفصل.. فقد كانوا أحباءه يمزح معهم ويعاملهم بلطف، إن أكثر ما يجرح القلب.. أن يتعامل المعلم مع الطلاب بطرق مختلفة.. وأن يميز بينهم في المعاملة دونما سبب منطقي، اللهم الا العنصرية العمياء، والخوف

من الآخرين ، لقد تذكر حليم تلك العبارة التي قالها معلم اللغة الانجليزية ذلك اليوم: "إن مشكلتنا نحن العرب.. أننا نكره نجاح بعضنا البعض، فقد يقتل أحدهم الآخر فقط لأنه أنجح منه".

كانت تلك العبارة غامضة وقتها.. ولكن الآن بدأت ملامحها ومعانيها تتضح في عقل حليم .. فمثلاً عند نجاح أي لاعب عربي، تجد أول من يحاربونه هم أبناء وطنه!

تمضي الأيام حتى أتى آخر الفصل.. وقت تسليم المشروع المدرسي لكل مادة، أما مادة اللغة العربية.. فقد كان المشروع عبارة عن ذلك العرض التقديمي.. الذي سيُقدم أمام جميع الطلاب من خلال الحاسوب، لقد رمى الاستاذ خالد الكرة في ملعب حليم دون قصد.. فما أكثر العروض التقديمية التي قدمها في صغره.. حتى لقب "بالمعلم الصغير"، ولكن هذا المشروع سيكون ثنائياً، أي أن كل مجموعة مكونة من طالبين سيقدمان المشروع.

اتفق حليم مع صديقه الضخم ابراهيم، لقد قام حليم باستغلال خبراته القديمة في صناعة العروض التقديمة.. وصمم عرضاً تتغير شاشته

بتوقيت معين.. حاسباً الوقت اللازم بالثواني.. على أساس أن يتحدث في كل فقره.. ثم تتغير الشاشة تلقائياً، لقد صمم المشروع وحده كاملاً.. حتى يكون متقناً بدقة متناهية.. فقد وعد أن يبهر جميع من يرى ذلك العرض.. وأن يصل ذلك للبعيد والقريب.

إنه اليوم المرتقب، فما أن بدأت حصة العربية.. حتى دخل الجميع الى قاعة الحاسوب لعرض مشاريعهم، كل مجموعة تخرج وتعرض ما لديها، فالبعض قد تغيب عن الحضور خوفاً، والأخر من يخرج مرتجف اليدين.. وبتلعثم لسانه أمام ذلك الجمع، ومن يمسك ورقة ويقرأ منها.. والأخر يقف أمام الحاسوب يقرأ منه.. معطياً ظهره للجمهور المستمع، ولكن أكثر ما صدم الجميع.. تلك العبارة التي كان يكررها الأستاذ خالد بعد انتهاء كل عرض.. "كم تعطي لنفسك من عشرين ؟"، لم يتجرأ أحد أن يطلب لنفسه فوق العشرة !

قد حان الآن آخر عرض.. إنه عرض حليم وابراهيم، ما إن وقف حليم شامخاً أمام زملائه.. كما اعتاد صغيراً، عيناه تتحديان عيون الجميع.. ولم يأبه بذلك المعلم الذي كان جالساً خلفه، حركات يديه انسيابيةً..

كموج البحر الذي لا يخطئ طريقه، ابتسامة النصر واضحة على عيني حليم، ثقة الفتى قد أربكت ذلك المعلم.. الذي سُقط في يده عندما فوجئ بما لم يكن في الحسبان من براعة حليم وسيطرته على اهتمام واعجاب كل من بالقاعة فقرر أن يخرج عن صمته، ويشتت انتباه الجميع..!

فأشار بيده للأعلى قائلاً:

- ما هذا الطائر الموجود هناك!

توقف حليم قليلاً متعجباً!.. ولكن مالم يتوقعه ذلك الحقود.. أن ذلك لم يؤثر على أحد.. بل طلب الجميع من حليم أن يكمل، فأكمل حليم حتي انتهى من ذلك الشرح الاحترافي.. ثم أكمل زميله ابراهيم ما تبقى من الشرح..

وجاءت لحظة ذلك السؤال السخيف:

- كم تعطي لنفسك يا حليم من..؟

لم يكمل المعلم جملته.. حتى صاح جميع من بالقاعة في صوت واحد أدهش الأستاذ وأخرسه في نفس الوقت:

- بالتأكيد عشرين.

كان ذلك صفعة قاسية تلقاها ذلك الحقود.. الذي ظل الارتباك يسيطر عليه.. لا يعرف كيف يتصرف.. ثم نظر الى حليم قائلاً:

- أنا لو قيمت نفسي لن آخذ أكثر من تسعة عشر، ولكن كرماً مني سأعطيك أنت وابراهيم ثمانية عشر.

ما إن جلس حليم خلف طاولة زميله ابراهيم.. حتى سمع ذلك المعلم مقترباً من ابراهيم.. هامساً في أذنه:

- لقد أعطيتك نسعة عشر تقديراً لوالدك أستاذ الجامعة، فرجاءً أبلغه تحياتي عندما تعود للمنزل.

كانت تلك الكلمات كصاعقة انقضت على ذلك الفتى الصغير.. الذي قام بتحضير كل شئ بمفرده.. بل وكان هو الأفضل والأكثر احترافاً.. ثم تكون هذه هي النتيجة.. الهواء الذي يلمس جسد الفتى كان يلدغه من كل مكان، إن تلك الصدمة.. كانت كافيه بأن تخبر حليماً حقيقة الحياة، وأن من نتخذهم قدوة لنا لنتعلم منهم أساسيات الحياة والأمانة، بل ونعتبرهم في منزلة الملائكة التي لا تخطئ.. هم من يرتكبون أفظع الجرائم..

من المؤسف حقاً.. أن ترى التفرقة لمجرد الجنس من أناس يعانون من نفس المشكلة فالاستاذ خالد من نفس وطن حليم وقد تعرض قبل ذلك لأسوأ صور العنصرية ومع ذلك يتعامل بهذه الطريقة الحمقاء!

ليس من السهل أن تكون حاكماً عادلاً، ولهذا فمنزلة الحاكم العادل.. أنه أول من سيظلهم الله بظله.. ليحميهم من حرارة الشمس الحارقة يوم القيامة.. كما أخبرنا خير البشر الرسول ﷺ.. في حديثه عن السبعة الذين سيظلهم الله في ظله يوم القيامة.

٣

جَامِعَةُ اَلألوَانِ

ما أن انتهت فترة الثانوية العامة.. وبدأ التسجيل في الجامعات.. حتى بدأ حليم يفكر بالتخصص الذي يحبه، كان مولعاً بهندسة الحاسوب والتصاميم.. وحلمه الحقيقي أن يصبح ذلك المهندس.. الذي يستطيع أن يفيد مجتمعه بذلك التخصص، تأثر والدا حليم كثيراً بحلمه.. حتى إنهما حاولا بكل قوة أن يدخلاه تلك الجامعة، إنها الجامعة الرئيسية والحكومية في البلاد..

لقد سمع أبو حليم أن تلك الجامعة بها شخص من ذوي البشرة السوداء ذو نفوذٍ لدى مديرها، لذا تحمس كثيراً أن يقابله.. ويخبره برغبة ابنه في الالتحاق بتلك الجامعة، كذلك أخبره البعض أن ذلك الشخص "الجندولي".. قد يتوسط في قبول أشخاص ممن ليسوا من مواطني الدولة في الجامعة.

إن الحل السحري المعتاد هو الواسطة! إن الشخص الوحيد الذي قد يقدم المساعدة هو عم حليم.. والذي يعمل لدي أحدى الشخصيات

الهامة في الدولة، ولكن الخلافات العائلية لا تخلو من أي منزل، ضغط أبو حليم على أعصابه.. وقرر أخيراً الذهاب لأخيه.. حتى يتوسط له عند "الجندولي" ليقبل ابنه حليماً في الجامعة..

ذهب بعدها حليم ووالده الى مكتب الجندولي للتحدث معه .. فاستقبلهما سكرتيره الخاص بروتين عادي:

- أهلا بكما تفضلا بالجلوس حتى يأتي دوركما.

يبدو أن جميع الجالسين من ذوي البشرة السوداء، كم كان منظراً جميلاً.. أن يساعد أبناء الأصل الواحد بعضهم بعضاً، إنَّ طعنات الغدر التي تلقاها حليم.. لم تأتِ إلا من أبناء وطنه.. والحقد المدفون في قلوبهم لا يعلم سببه أحد!..

تتحدث سيدة جالسة بالقرب منهما لابنها:

- ادع ربك يا بني.. أن يتم قبول أختك في الهندسة من أول فصل.. كما فعلنا معك العام السابق!

وتوالت الساعات.. حتى أتى الدور على حليم ووالده للدخول..

رحب الجندولي بهما.. وهو جالس على ذلك المكتب الضخم:

- تفضلا بالجلوس واستريحا، بماذا أستطيع أن أخدمكما؟

جلس أبو حليم ثم بدأ بالكلام:

- لقد جئنا لك من طرف مكتب معالي المستشار "حمد الرميثي".. في الموضوع الخاص بابني حليم.

ليبتسم الجندولي تلك الابتسامة الغامضة:

- أجل أجل، لقد تلقيت رسالة توصية من ذلك المكتب.. ولكن باسم طالبين، حليم وشخص آخر من أقاربكم، ولا يوجد لدي الا مقعد واحد فقط، ويؤسفني أنهم قد اختاروا ذلك الشاب وليس حليماً، غريب ألم يخبروكم بذلك!

ثم صمت قليلاً.. وتحرك بكرسيه وهو جالس.. ليحضر مجموعة من الأوراق قائلاً:

- انظرا الى تلك الورقة.. أنهم أوائل الدولة ولم يقبل منهم أحد! وحتى وإن قبل أحد منهم.. فلن يدخل كليات الطب أو الهندسة.

بدأت علامات الحزن على وجه حليم.. ثم سأل متعجباً:

- هل معنى ذلك.. أن أي شخص من الجالسين بالخارج لن يدخل الهندسة.. حتى لو كان من ذوي البشرة السوداء!

رد الجندولي ساخراً سريعاً:

- صدقني ولن أضمن قبوله في الجامعة من الأساس.

وقف أبو حليم باستياء:

- نشكر استضافتك لنا يا سيد جندولي، ولكن قبل أن نرحل أنا وابني.. أريد أن أخبرك أنني لست ساذجاً، ففي الخارج.. سمعت تلك السيدة وهي تدعو لبنتها.. أن يتم قبولها في الفصل الدراسي الأول في كلية الهندسة.. كما حدث مع ابنها في العام السابق، أرجو أن تكون أكثر صدقاً فيما بعد!

ثم تبعها أبو حليم بتلك النظرات الحادة.. التي كادت أن تخرق عيني الجندولي.. حتى خرج وغادر من مكتبه.

قرر أبو حليم أن يسجل لابنه في الجامعة، ربما ذلك هو القرار الأصعب لأي أب.. فقد يبيع أرض أجداده.. ويبيع ملابسه بل قد يبيع أجزاءً من جسده.. من أجل سعادة الأبناء!

بعد جلسات عائلية كثيرة.. ومشاورات بين الأهل والمقربين.. قرر حليم أن يسجل في كلية هندسة الحاسوب، وأن يستغل ذلك العلم في حياته العمليه فيما بعد، فعلوم الهندسة ليست مجرد علم مرتبط بالآلات، بل قد تندمج مع علوم كثيرة..

الذكاء الاصطناعي ومحاكاة الواقع.. إذا تم ربطها بعلوم الطب والعلوم الصحية.. ذلك ما كان يحلم به حليم.. بالتأكيد هي حياة لكثير ممن ينتظرون أن تخفف عنهم آلامهم.. أو أن تنقذ أرواحهم بتلك الاساليب الحديثة، ولكن السؤال المهم هل حقاً يستحقون تلك الحياة!

دائماً ما يكون اليوم الأول في أي مكان جديد غامضاً، الضجيج صاخب.. فالجميع من حولك يتكلمون، وهناك من يجلسون تحت ظل تلك الشجره يضحكون، ومن يقفون يدخنون في ذلك المكان البعيد، ومن يقف مع تلك الفتيات الحسناوات.. متحدثاً عن بطولاته وأمجاده..

دخل ذلك الخجول تائهاً بينهم.. لا يعلم من يسأل ولا أين يذهب، ثم ذهب الى ذلك الشاب الجالس بعيداً وحيداً، ليجلس بجانبه ويبدأ يعرفه على نفسه.. ولكن صُدم من رده عندما قال:

- أنا زياد وأدرس في كلية الطب، ولا أحب التعرف أو التحدث مع أحد!

بدأ الخوف يسيطر على حليم.. لم يكن حليم يعلم أن ذلك الشاب اللطيف.. سيكون صديقه المخلص في يوم من الأيام، بل وستظل

صداقتهما ممتدة، لا تتسرع في حكمك على الآخرين.. فأنت لا تعلم ما يخبئه لك القدر يا صديقي.

بدأت الصداقات من جديد الواحدة تلو الأخرى، صديقٌ يأتي وآخر يرحل، أصدقاء كثر قد عادوا الى أوطانهم بعد انتهاء الثانوية العامة، والآخر قد اسعفهم الحظ للسفر الى أوروبا وأمريكا، والبعض الآخر الذين لم يسعفهم الحظ.. لم يتمكنوا من استكمال تعليمهم الجامعي، ومن دمرت الحرب أوطانهم.. لم يعد لهم وطن يعودون اليه.. ولم يعد لهم مكان يهاجرون اليه.. لقد أصبح الجميع يستخدمون قضيتهم.. من أجل صناعة سحابة اعلاميه لهم.. ولكن ما الفائدة.. فهم في النهاية قد لقبوهم باللاجئين!!

حتى أصحاب المصالح.. أصبحوا يأجرون السفن والقوارب بثمن باهظ.. أملاً في حياة كريمة.. إنها قوارب الموت بلا شك، فحتى ان وصلت حياً ولم تطفُ جثتك فوق الماء.. سيقومون بترحيلك سريعاً، لأنك بلا أوراق، إنها أشبه بتلك اللعبة التي كانت تلعبها العصابات في الماضي.. وهي ترك رصاصة واحدة حقيقية بالمسدس.. وتوجيه فوهة

المسدس على الرأس.. فإما أن تموت من تلك الرصاصة، أو أن تُكتب لك حياة جديدة!

لا تصفق للغرب كثيراً على رحمتهم باستضافة اللاجئين.. ربما كانوا أكثر رحمة من قلوب العرب القاسية، ولكن أهدافهم الدنيئة تختبئ خلف تلك الاقنعة المبتسمة.. حتى أن بعضهم سئم من اعدادهم الهائلة.. وقرروا اللعب بهم كأوراق.. للضغط على دول أخرى لمصالح معينة!

لقد أقسم حليم على نفسه، أنه سيستغل تلك الفرصة العظيمة.. ليساعد بها الجميع عند تخرجه، لن يتخلى عن شخصٍ بحاجة اليه.. حتى وإن خالف جميع القوانين، فقوانين الحياة.. نحن من يصنعها لتحمينا، لا لتضر بحياة الآخرين..

مرت الأيام وبدأت امتحانات السنة الأولى، ولكن مازال ذلك الشبح الخفي يطارد حليماً، تفاجأ حليم بدرجاته الفصلية.. مع أنه بذل أقصى ما يستطيع، ليست سيئة فقد نجح في كل مواده.. ولكن هناك شئ غامض، ليست تلك النتائج المتوقعة من حليم!

ما إن بدأت السنة الدراسية الثانية.. حتى ذهب حليم الى تلك الدكتورة.. ليجد مكتبها متكدساً بالطالبات.. عن اليمين وعن الشمال.. لا يستطيع حتى الدخول.. فوجئ حليم بوجود طارق وفريد في مكتبها، إن أغرب ما لفت انتباه حليم.. أن كل هؤلاء المتواجدين فقط.. هم من حصلوا على أفضل النتائج في الدفعة..

نظرت الدكتورة غادة الى حليم بابتسامة كاذبة:

- كيف حالك يا حليم، لقد حزنت كثيراً من نتيجتك.

أجابها حليم مبتسماً بسخرية:

- لا تحزني فهناك طارق وفريد، ما شاء الله.. رفعا اسم الدفعة بنتائجهما المتميزة.

ثم يصمت قليلاً مخاطباً نفسه:

- أعتقد أنني قد حصلت على تلك الاجابة التي كنت أبحث عنها طويلاً.. لقد علمت الآن لماذا لم أحصل على تلك النتيجة الباهرة.. التي حصل عليها طارق وفريد، يبدو أنني لو كنت من بلاد الشام أيضاً مثلهما.. لنلت ذلك التقدير الذي يحظى به جميع من في مكتبها.

نظر حليم الى زميله فريد قائلاً:

- لقد جئت الى هنا.. عندما علمت أن صديقي فريد سينتقل الى كلية أخرى .. جئت لوداعه.

تفاجأت الدكتورة غادة وبعيون صادمة تنظر الى فريد:

- حقاً يا فريد، هل ما قاله حليم صحيحاً؟، ولماذا ستنتقل لكلية أخرى؟

رد فريد حزيناً بغضب:

- لقد أصبح معدلي الفصلي منخفضاً وأقل من (١.٥)، وحسب قوانين الجامعة يجب علي تغيير الكلية لكلية أخرى

نظر حليم الى الدكتورة غادة بثقة قائلاً:

- لا تقلقي يا دكتورة، ففريد من الطلاب المتميزين.. فكما استطاع أن يأتي بتلك النتيجة المتميزة في مادتك، سيأتي بها أيضاً في الكلية الجديدة

بدأ جميع من في الغرفة بتأييد كلمات حليم الساخرة.. وتوديع صديقهم فريد، لم تفهم عقولهم الصغيرة تلك الرسالة.. التي أرسلها حليم الى الدكتورة غادة، ولكن نظرات الدكتورة.. كانت كافية جداً.. بأن تقول أنها فهمت معنى تلك الكلمات..

لم تكن الدكتورة غادة فقط هكذا، فتلك الضحكات التي تخرج من غرفة الدكتور سمير.. جعلت عميد الكلية يذهب اليه مسرعاً، فليس من المعقول أن تكون هذه جامعة كبيرة.. ويحدث فيها هذا الكم من

الاستهتار، تلك الضحكات بين الأستاذ الجامعي وطالباته.. لا تدل على الخير أبداً، فالدكتور سمير لا يعترف بوجود الطلاب الشباب.. وكل أستاذ جامعي له من الأحباء من يقدرهم فقط، أما البقية فلا وجود لهم.. ولا أي اعتبار لهم، كل ذلك كان كفيلاً أن يتسبب بعقدة الى حليم، لم يكن يتصور أن تكون الحياة الجامعية بهذا الشكل، لقد كانت المدرسة أفضل بكثير من ذلك التحيز الموجود بالجامعة.

مرت الأيام.. وقرر حليم الخروج مع صديقه زياد خارج الجامعة، ليخبره عما رآه في تلك الجامعة المريبه، والتقى الصديقان عند ذلك المقهى الموجود بالقرب من الجامعة .. فسأله زياد صديقه:

- ماذا بك يا حليم؟.. هل تواجه أية مشاكل؟

فأجابه حليم يائساً:

- للأسف يا صديقي، لم أجد ما كنت أبحث عنه في هذه الجامعة، إنها حياة مليئة بالتمييز والتفرقة، لقد بدأت أشك أن أوراقنا تصحح من الأساس!

قاطعه زياد بتلك الضحكات الهستيريه ثم قال:

- حليم أنت أكبر إخوتك، أليس كذلك؟

أجابه حليم باستغراب:

- بلى صحيح، ولكن لمَ هذا السؤال؟

تابع زياد:

- أنا أقدم منك في هذه الجامعة، ربما لست في نفس كليتك.. ولكن كنت في البداية مثلك تماماً، حتى تعلمت كيف تسير الأمور هنا، لا تتسرع.. فجميع الجامعات في العالم تسير على نفس الوتيرة، البنات هنا هم من لهم الأولوية في كل شيء يا صديقي.

أجابه حليم مستغرباً:

- وكيف علمت ذلك يا زياد.

ضحك زياد من جديد واضعاً يده فوق كتف زياد:

- حليم يا حليم.. حسناً اسمعني جيداً، لدي بعض الصديقات في دفعتي، وقد ساعدتني بعضهن.. فكن يرسلن لي بعض أسئلة الامتحان المسربة..

قاطعه حليم وعلى عينيه أثار الصدمة:

- أنت تمزح بالتأكيد، هل تقصد ...، امتحان مسرب كالذي نمتحنه! أنت تبالغ بالتأكيد يا صديقي.

أجابه زياد بثقة:

- الامتحان بالكامل يكون في حوزتي، ولكن انظر الى كيد النساء، فتلك الأوراق فقط تأتيني عبر البريد الالكتروني.. وقبل الامتحان بساعات بسيطة، حتى أحياناً لا أجد وقتاً كافياً لقراءته كاملاً.

ثم يعم الصمت قليلاً ويشربان قهوتهما..

نظر زياد الى حليم قائلاً:

- انظر، يجب أن تخلع عباءة الخجل منك.. يجب أن تتعرف على صديقاتك الاناث بالدفعة، هذا هو الحل الوحيد إن كنت تريد النجاح.

ضحك حليم قليلاً ثم قال بغرور:

- سوف نأخذ تلك الامتحانات يا صديقي لا تقلق.

فيرد زياد مسروراً:

- أحسنت هكذا بدأت تتعلم..

قاطعه حليم بثقة:

- ولن تراجع تلك الأوراق قبل الامتحان بساعات قليلة، وستأتيك قبل موعد الامتحان بأيام إن أردت يا صديقي.

نظر زياد الى حليم.. ثم قال:

- ذلك يعتمد على نوع الصداقة إذاً والثقة بينك وبينها!

ضحك حليم من جديد بغرور قائلاً:

- ومن قال لك أنني سأتعرف على أي صديقات كما أخبرتني!

رد زياد متعجباً بعد أن أخذ رشفة من القهوة:

- حليم هل أنت متأكد من أنّ ما تناولته هو قهوة!، كيف ستصل الى تلك المستندات.. الا اذا حصلت على الحاسوب الشخصي من أي فتاة، وأيضاً كيف ستعرف أن تلك الفتاة.. هي حقاً التي تمتلك تلك الأوراق، بل حتى لو كانت هي بالفعل.. لن نستفيد شيئاً من حاسوبها، فقد تكون محتفظة بتلك المستندات في بريدها الالكتروني فقط!!

أجابه حليم بغموض:

- لا تتعجل ستعلم قريباً كل شيء، دعنا الآن نغادر حتى لا نتأخر عن محاضراتنا.

مرت الأيام.. وبالفعل بدأ حليم وزياد بالتخطيط لخطتهما، كانت جميع الامتحانات في حوزتهما، يالها من لحظة مثيرة .. عندما تأتي الأستاذة غادة لتقيّم اجابات الدفعة.. فتتفاجأ أن حليماً هو صاحب الاجابات الأفضل!

لقد أصبحت لحظة دخول حليم لباب الجامعة.. تريب أنظار الجميع، حتى تلك الفتيات اللاتي يراقبنه من بعيد.. ويشرن بأصابعهن على ذلك الفتى المثير! وما ان يجلس حليم في تلك الاستراحة التي تتوسط ساحة الجامعة.. وتظلها المظلات من حرارة الشمس، حتى يبدأ الأصدقاء بالالتفاف من حوله.. وتمتلئ الاستراحة بالجميع.. وذات مرة يخبره طارق بغرور:

- لا تفرح كثيراً يا حليم.. فقد أخبرتني الدكتورة غادة، أنه لن يأخذ أحد درجة الامتياز هذا الفصل مهما حدث.

ابتسم حليم قليلاً وهو ينظر الى طارق ثم قال:

- لمَ لم تدعنا الى حفلة الأمس في غرفة الأستاذة غادة! أو على الأقل ادع صديقك وحبيبك فريد.. أم أن صداقتكما فقط خارج الجامعة، بالمناسبة تلك الكعكة لم تكن جيدة.. حاول أنت وصديقاتك فيما بعد أن تختاروا نكهة الفراولة، لأن الأستاذة غادة تحبها أكثر..

نظر فريد الى طارق باستياء، ثم رد طارق سريعا:

- صدقني يا فريد لقد اتصلت بك مراراً.. ولكنك لم ترد علي، كما أنه لم أجد وقتاً لأخبرك، فقد أخبروني عن تلك الحفلة قبلها بدقائق معدودات فقط، أقسم لك..

ثم ينظر طارق الى حليم ويسأله متعجباً:

- ولكن كيف علمت بكل ذلك؟ لقد كانت حفلة سرية جداً، ومن أخبرك بموضوع الكعكة.. لابد من وجود جاسوس بيننا، لا تقلق أعدك أنني سأعرفها.. ولن تفلت من العقاب.

ضحك حليم بشدة وهو يقول:

- أقسم لك يا طارق.. أنني سأجعلك تشك في نفسك.. بل وفي صديقتك الدكتورة غادة، ولكن خذ تلك النصيحة مني، إن كنت تريد النجاح.. حاول ألا تستغل قلوب النفوس الضعيفة.. لتصل الى ما تريد.

قاطعه زياد:

- حليم هل صحيح سيذهب طارق وفريد كما أخبرتني.. الى تلك الحفلة الصغيرة التي أعدوها في المقهى، وهل بالفعل سيحضر اليها الدكتور سمير!

رد حليم وهو يضحك:

- يا صديقي أنت تعلم أن ذلك الدكتور الأبله.. مستعد لأن يطير بجناحين في سبيل الجلوس مع أي فتاة، وصراحة لا أخفي عليك يا زياد، صديقنا طارق لديه صديقات فاتنات.. فلو كنت مكانه لفكرت في ذلك العرض قليلاً، أما فريد أظنه قد غير رأيه الآن ولن يذهب معهم.

بدأ حليم وزياد بالضحك قليلاً..

ليسأل كريم مستهزءاً:

- لماذا أنت قاسي القلب يا حليم! لا عليك يا طارق.. سوف آتي أنا معك تلك الحفلة بدلاً من فريد..

لم يتحمل طارق وفريد ما حدث، كانا يتمنيان أن تنشق الأرض وتبتلعهما، لقد قلب حليم عليهما الطاولة، فبعد أن كان طارق يريد مضايقة حليم واستفزازه، وإذا بحليمٍ يصفعه صفعةً قوية أمام الجميع..

ابتسم كريم وهو يقول:

- حليم.. أشكرك عما فعلته معي أنت وزياد، لقد كنت تائهاً جداً في كلية الصيدلة.. ولا أحد يريد مساعدتي في هذه الجامعة، لقد سمعت كلامك كما أخبرتني، وأوفيت بوعدي كاملاً أنني سأدرس من تلك الأوراق.. دون أن أسألك عن مصدرها أبداً، لكن أخبرني الآن.. كيف تعلم كل ذلك عنهم.. وأنت ليس لديك أي علاقات بتلك المجموعة، أخبرني على الأقل من ذلك الشخص الذي يأتي لك بتلك الأخبار، أحياناً أشعر كأنك لست بشراً مثلنا، عندما رافقتك تلك المرة.. الى ذلك الممر الواقع بين غرف الدكاترة في كلية الهندسة، كانت الدكتورة غادة تراقبك من وراء

الزجاج.. تترقبك بشدة وهي متوترة أن تدخل عندها في أية لحظة، بالفعل الجميع أصبح يخاف منك ويهابك!

رد حليم بهدوء شديد:

- لا داعي لهذا الكلام يا صديق الطفولة، ولكن سأكرر ما قلته لك مرة أخرى.. من الأفضل ألا تعرف السر، ولكن خذ هذه النصيحة مني، عندما ترى ظلماً يحاربك بسلاح الشر.. يجب أن تحاربه وترد عليه بنفس الشر، ولكن الفرق هو أن الشر الذي تحارب به.. ليس شراً ظالماً بل هو العدل!

ثم نظر حليم الى كريم وسأله:

- هل تعلم يا كريم كيف خسرت العراق الحرب دون قتال؟!

فكّر كريم قليلاً ثم يجيبه:

- ربما بسبب الخونة؟

قاطعه زياد غاضباً:

- هل تقصد أنني قد أخونكما يا كريم؟

ضحك حليم بشدة فبادرهما كريم:

- بالتأكيد لم أقصد ذلك ولا أشك في اخلاصكما وأنتما من تقدمان الى خدماتكما دون مقابل ولكن أخبراني كيف خسرت العراق الحرب.

فيرد حليم بهدوء:

- لقد استغلت "أمريكا" كل امكانياتها التكنولوجية الحديثة، واستطاعت الحصول على خطط العراق الحربية دون الحاجة الى جواسيس من البشر.. حتى انها خاضت الحرب بالتكنولوجيا.. دون الحاجة الى العنصر البشري في كثير من عملياتها.

ثم نظر حليم الى أصدقائه وقال فجأة:

- أين ذهب طارق الآن؟

أجابه كريم سريعاً:

- بالتأكيد ذهب الى مكتب الدكتورة غادة، ليخبرها عما حدث هنا.. ويكتشفوا ذلك الجاسوس.

ضحك حليم من جديد وهو يقول:

- أحسنت، ولكن للأسف لن يجدوا أي جاسوس بينهم، ولن يخونني أي شخص.. لأنني ببساطة لا أعرف أي شخص ممن يترددون على ذلك المكان باستمرار، ولا تربطني بهم أية علاقة.

أجابه كريم وهو مسرور:

- يا لك من مجرم يا حليم، لقد قمت بتركيب أجهزة تنصت في مكتبها أو أنك استعنت بالجن كالسحرة.

ضحك حليم وزياد بشده.. ثم أجابه زياد:

- لا يا كريم الموضوع أكبر قليلاً، ولكي يستمر مفعول السحر.. يجب أن يبقى السر مدفوناً، سأخبرك بكل شئ في الوقت المناسب، أما الآن يا حليم فهناك موضوع مهم.

سأله حليم:

- ما هو ذلك الموضوع يا صديقي؟

أجابه زياد باستياء:

- لقد حاولت أن أبحث لك عن أسماء الفتيات اللواتي يترددن على مكتب الدكتور "عبدالرحمن كاتو".. المسؤول عن مادة "مهارات التفكير"، ولكن للأسف ليس له أي صلة بأحد، وفي الغالب لأن أصوله من نيجيريا.. ومن ذوي البشرة السوداء.. فلا أحد يريد مصادقته!

فكر حليم قليلا ثم قال:

- إذاً فخطتنا لن تنجح معه، ماذا سأفعل الآن.. فلدي امتحان نهائي آخر في نفس يومه، لقد فاتني الكثير من المحاضرات.. ويجب أن أجد حلاً سريعاً..

أخبره طارق قلقاً:

- كن حذراً يا صديقي، فهو من أصل افريقيّ، ولا أحد يستطيع التعامل معه هنا.. ولا أحد يحبه!!

مرت الأيام.. وبدأ حليم بحضور تلك المحاضرات الأخيرة.. والمشاركة مع ذلك الدكتور، لقد لاحظ الدكتور "كاتو" ذلك الطالب.. الذي يشارك معه بحرارة، ولكن بعد فوات الأوان، وما ان انتهت المحاضرة.. حتى ذهب حليم الى الدكتور كاتو وسأله:

- هل أستطيع القدوم الى مكتبك يا دكتور؟

أجابه الدكتور كاتو متعجباً:

- بكل تأكيد فمكتبي مفتوح لأي أحد، ولكن مع الأسف لا أحد يأتي، تعال الآن إذا رغبت في ذلك!

فأخبره حليم مبتسماً:

- حسناً سأرافقك الى مكتبك.

وأثناء الطريق ظلّا يتحاوران قليلاً..

نظر حليم الى الدكتور كاتو وهو يقول:

- هل تعلم يا دكتور كاتو، من أول يومٍ لي في هذه الجامعة.. وأنا أتعرض للتمييز الشديد، لا أعلم ما السبب الحقيقي، ولكن ربما لكوني من أصول افريقيه!

رد الدكتور كاتو حزيناً:

- لا أحد يشعر بمعاناة شخص آخر.. إلا اذا مر بنفس معاناته، ولكن لازالت فرصتك أفضل مني يا ...، صحيح ما هو اسمك؟

أجاب حليم سريعاً مبتسماً:

- اسمي "حليم".

ثم يكمل الدكتور كاتو:

- لازالت فرصتك أفضل يا حليم .. فبشرتك ليست سوداء مثلي، على الأقل ستجد معجبين بك.. حتى لو كنت من أصول افريقية، أما أصحاب البشرة السوداء ..، هل تعلم أن البعض يخافون حتى من لمسنا؟

نظر اليه حليم متأثراً وهو يقول:

- عندما كنت صغيراً في المدرسة، أول من طعن ظهري هم أبناء وطني، مع الأسف كان من المفترض أن يكونوا معلميَّ وقدوتي في الحياة، لم أيأس ولم أستسلم، صادقت جميع من حولي، إن جميع الرسل المبعوثين من الله.. كان لديهم أصدقاء صدقوا رسالاتهم، ولكن في نفس الوقت كان

أعداؤهم كثر .. مع ذلك لم يستسلموا.. بل هناك من ظل ألف عام يدعو قومه.. انظر الى السماء فوق تلك السحب البعيدة، فهناك حتى الآن من يختلفون على وجود الله الأعظم، صدقني الأمور ليست كما تظن، فالعالم كبير وحتماً ستجد هؤلاء الأصدقاء.

ثم مد حليم يده الى الدكتور كاتو قائلاً:

- ما رأيك أن أكون أنا أول صديق لك اذاً؟

قام الدكتور كاتو بمصافحة حليم ورد عليه مسروراً:

- أتشرف بأن يكون هذا العقل الرائع صديقاً لي، هيا تفضل بالجلوس معي في المكتب.. سأعزمك على كوبٍ من القهوة بنفسي..

رفض حليم ذلك محرجاً:

- أشكرك يا دكتور.. سأشرب معك القهوة في المرة القادمة..

ولكن الدكتور أصرّ أكثر ممازحاً حليم:

- لا تدع الألقاب عائقاً بيننا.. طالما أصبحنا أصدقاء فنادني بـ كاتو، انظر ستتناول القهوة معي والا سترسب في المادة..

تناول حليم القهوة مع أنه لا يحبها، ولكنه يعلم تماماً.. أنّ رفضه للقهوة في هذا التوقيت سيدمر ما بناه منذ قليل..

فسأله حليم على استحياء:

- أريد أن أخبرك شيئاً..

أجابه الدكتور كاتو:

- لا تقلق يا حليم، أعلم أن المادة الدراسية صعبة قليلاً .. ولكن شخصاً بمستوى ذكائك.. لن تقف هذه المادة عائقاً أمامه، حتى أن اسم المادة "مهارات التفكير" .. وها أنت قد أبهرتني بطريقة تفكيرك، هل تعلم يا حليم ما هو أسوأ شيء نقوم به؟ .. هل تعلم ما يميز الغرب وأوروبا عن مجتمعاتنا؟

تابع كاتو مخرجاً هاتفه وهو يقول:

- إنه نفس سبب سقوط شركة "نوكيا".. فبعد أن كانت شركة الهواتف الوحيدة في السوق كله، لكنّها رفضت التغيير.. ورفضت مواكبة التكنولوجيا الجديدة.. لا أحد يريد التغيير، فجميع الأساتذة ينظرون الى الطلاب على أنهم مجموعة من الأوراق، لديهم مجموعة من الدرجات "A,B,C,D,F".. وعليهم توزيعها جميعاً بطريقة متناسبة على طلابهم، ولا أحد ينظر الى عقول هؤلاء الطلاب، هكذا هي الحياة الجامعية للأسف يا صديقي.

تناول حليم بقية القهوة ثم قال:

- في الواقع .. كان لدي مشكلة بسيطة، لدي مادتان في نفس اليوم في الامتحانات النهائية، أحدهما هي مادتك يا دكتور كاتو، وللأسف فمادتك كما تعلم صعبة.. والمادة الأخرى صعبة وطويلة، فمن الصعوبة أن أراجعهما في نفس اليوم.

ضحك الدكتور كاتو قائلاً:

- أفهم من ذلك أنك تريد تغيير موعد مادتي

فظهر الخجل على وجه حليم فبادره الدكتور كاتو:

- إذن.. وما المشكلة في ذلك، سأتقدم بطلب الى الادارة لتأجيل مادتي الى آخر يوم في الاختبارات.

ظهر السرور على وجه حليم وقال باستغراب:

- شكراً لك يا دكتور .. لقد فرجت كربة الدفعة كلها، فلقد علمت ضيق الطلبة بموعد امتحان مادتك.

رد الدكتور كاتو مبتسماً:

- ولكن لماذا لم يطلب مني أحدٌ ذلك قبلك؟!

رد عليه زياد مبتسماً:

- الجميع يهابونك يا صديقي، لكنني على يقين أنهم يتمنون ذلك.. شكراً لك مرة أخرى.

④

حَاجِز المِئَة

بدأت الامتحانات النهائية .. والتقى حليم صديقه زياداً في استراحة الجامعة بعد الامتحان الأول، وما هي الا دقائق حتى أتى صديقهم كريم.. فبدأ زياد بالحوار:

- مرحبا بكم يا أصدقاء.. أخبراني كيف كان يومكما؟

رد كريم بفرح:

- لقد ظهرت نتائج مادة مهارات الحاسوب في نفس الوقت، والحمدلله نجحت بنتيجة (٩١٪).

أجابه زياد مبتسماً:

- أحسنت.. إذن نجحت بامتياز، لا داعي بالطبع أن أسألك يا حليم، فبالتأكيد نتيجتك أفضل من كريم.

ضحك حليم قليلاً وهو ينظر اليهما:

- لقد كسرت حاجز المئة في الجامعة.

نظر زياد و كريم اليه بصدمة .. ثم قال كريم:

- رائع.. أنت ماهر جداً يا صديقي.

نظر زياد الى حليم قائلاً باستياء:

- هل هذا ما اتفقنا عليه يا حليم؟ هل تعلم أنه منذ تأسيس الجامعة حتى الآن.. لم يكسر أحد حاجز المئة!

التفت كريم الى زياد متعجباً قائلاً:

- ما هذا الحقد يا رجل، إ

إنه حليم صديقنا، لم أتوقع أن تكون هكذا!

رد حليم بثقة:

- لا تقلق يا صديقي، أريد ايصال رسالة بهذه النتيجة.

انفعل زياد ورد بغضب:

- ماذا تريد أن تخبرهم.، أن أنظمتهم مخترقة!.. ما بنيناه طيلة هذه السنوات.. تريد أن تهدمه في لحظة!

فأجابه حليم بهدوء:

- بل أريد أن أخبرهم.. أنهم اذا استمروا على تلك القواعد الخاطئة.. سيحدث مثل ما حدث اليوم، سيتفوق طالب في كلية الهندسة.. على جميع الأساتذة والفلاسفة في الهندسة، هل تعلم ماذا يعني أن يحقق طالب هندسة تلك النتيجة؟

رد زياد بسخرية:

- أجل أعرف يا حليم، ستجتمع لجنة خاصة وقد يحققوا معك قريباً.. لذا كن مستعداً.

قاطعهما كريم مندهشاً:

- لحظة لو سمحتما، ماذا هناك يا شباب، أنا لا أفهم شيئاً .. عمّ تتكلمان!، ليشرح لي أحدكما ما يجري.

نظر حليم الى كريم قائلاً:

- سأشرح لك كل شيء فيما بعد يا كريم.

قاطعه زياد منفعلاً:

- ولمَ فيما بعد! لن يكون سراً بعد الآن، الموضوع باختصار أن حليما..

صرخ حليم مقاطعاً زيادا:

- كفى يا زياد.. هيا لنكمل حديثنا خارج الجامعة، أنسيت أين نجلس!.. هل جننت!

ذهب الأصدقاء الى المواقف الخاصة بالسيارات، وهم في الطريق.. جاء أحدهم مسرعاً الى حليم، أخبره بأن الدكتور عصام والدكتور هاني

والدكتورة رانيا.. سيجتمعون بالغد ويشكلون لجنة تحقيق.. و أنه يجب عليه الحضور، بعد ذلك غادر الشاب وركبوا جميعاً سيارة زياد، ثم انطلقوا بالسيارة خارج الجامعة في طريقهم الى المقهى .. سألهم كريم والحيرة تملأ عينيه:

- هل ستظلان صامتين طوال الطريق؟ ليخبرني أحدكما ماذا يحدث الآن..

خرج زياد عن صمته غاضباً:

- ماذا تريد أن تعرف يا كريم ، حليم لديه استجواب بالغد، ولا نعرف ماذا سنفعل..

رد حليم بعد أن استنشق بعض الهواء وأخرجه من أنفه بهدوء قائلاً بصوت هادىء:

- اسمع يا كريم ، أنا وزياد شكلنا فريقاً، وكنا نخترق أجهزة الحاسوب ونأخذ ما نريد منها..

قاطعه كريم مصدوماً:

- تقصد "هاكر".. اذان كنتم تخترقون أجهزة الدكاترة.. وتأخذون تلك الامتحانات!

رد زياد بصوت هادئ هو الآخر:

- لم نخترق جهاز أي دكتور، انتبه لما سأشرحه الآن.. أغلب الدكاترة لديهم علاقات خاصة بالطلاب في الجامعة، بغض النظر عن طبيعة تلك العلاقات.. إعجاب أو حب أو صداقة أو صلة قرابة أو علاقة بآبائهم.. و لا تنسَ أن هناك كمثال بسيط .. سارة ابنة الدكتور سمير..الأب الروحي لجميع الفاتنات بالجامعة.. لديها جميع امتحانات والدها.. ثم ترسلها لجميع صديقاتها في الكلية، هؤلاء هن المتفوقات حقاً وأصدقائهن من الشباب، أما أنا وحليم وأنت والبقية.. فمجموعة من الفاشلين لا قيمة لنا.

قاطعه حليم مكملاً:

- لقد كنا نشكل فريقاً خاصاً أنا وزياد، كنت أنا من يصنع الملفات الملغمة أو "الباتش"، بينما زياد كان عليه الدور الأكبر، فكنا نستغل وسامته وصداقته القوية بالفتيات.. ليرسل لهن تلك الملفات، هذه الملفات كانت امتحانات حقيقية.. ولكن ملغمة بذلك "الفايرس"، وكان زياد ملتزماً جداً بالخطة.. ينبّه على صديقاته بعدم تسريب ذلك الامتحان لأي أحد، وكما نعلم أن المرأة لا تحتفظ بالسر أكثر من خمس ثواني، فكانت صديقات زياد يوصلن تلك الملفات لصديقاتهن.. اللواتي يمتلكن كل شيء.. بهدف تبادل المنفعة معهن، وهذا ما كنت أريد الوصول اليه..

صمت حليم قليلاً ثم تابع:

- أما دوري أنا.. فكان الأهم رغم بساطته، لقد كان المجلس الخارجي المنفصل الخاص بمنزلي.. هي غرفة العمليات التي أنفذ فيها كل شيء، أي أحد كان يقوم بتشغيل تلك الملفات.. كنت أخترقه في نفس الثانية، كانت احتياطاتي كبيرة جداً، فقد ربطت جهازي بأجهزة لاخفاء "الأي بي" أو عنوان جهازي .. أزلت أدوات تسجيل الصوت .. مسحت كل الملفات الخاصة بي من الجهاز، وبالطبع اتفقت أنا وزياد أن أهدافنا واضحة تماماً.. وهي عدم الاقتراب نهائياً من أي جهاز بالجامعة .. وبالطبع كنا متأكدين.. أن تلك الملفات الملغمة.. لن تصل الى موظفي الجامعة، رغم دقة خطتي.. ولكنني لم أتوقع أن تصل تلك الملفات لطلاب الثانوية.. الذين ينوون الالتحاق بالجامعة ولم يلتحقوا بها بعد.

رد كريم مذهولاً:

- أهاا .. لقد فهمت الآن كل شيء، فهمت كيف كان حليم يجلس بين الجميع، ويقرأ ما في عقولهم، ولكن هل اخترقتما جهازي؟

ضحك حليم وزياد، ثم أجابه زياد:

- لا تقلق فنحن نخترق عقلك بسهولة ونعلم ما تفكربه، فلا حاجة لأن نتعب أنفسنا ونخترق جهازك.

ضحك حليم وزياد من جديد ..

رد كريم ساخراً:

- أراكما تضحكان والمشاكل تحيط بكما!..

قاطعه حليم سريعاً:

- بنا وليس بكما، أهلا بك عضواً جديداً معنا، هل تعلم يا كريم أن الغيب نعمة كبيرة من الله، هل تعلم مدى الألم الذي تشعر به عندما تعلم كل شيء، عندما كنت أنقل إحدى الملفات من جهاز احدى الفتيات، لاحظت المحادثة التي دارت بينها و بين صديقاتها.. كان الجميع يتحدث عني، تارةً يصفونني بالراهب.. وتارةً أخرى بالساحر الذي يعلم كل شيء، لقد رأيت الكثير.. يغتاب بعضهم البعض.. وفي اليوم التالي يتقابلون بالاحضان والقبلات، لقد تذكرت كيف يرانا الله ويعلم كل ما نقوم به، بل كل ما ننوي القيام به، ومع ذلك يسامحنا ويعفو عنا في النهاية!

نظر زياد الى حليم بحزن.. واضعاً يده فوق كتفه وهو يقول:

- ماذا ستفعل يا صديقي في الغد؟

ضحك حليم بجنون ثم أجابه:

- لم أتوقع أن تسألني هذا السؤال يا صديقي، ثق بي يا صديقي.. فكما ترى لم نقترف أي خطأ، هل تعرف قاعدة (القارب ذو الطابقين)؟ هذا ما سيحدث بالغد!

سألهما كريم متعجباً:

- ولكن ما هي تلك القاعدة؟

أجابه زياد:

- من ينقب في الطابق السفلي، سيغرق القارب كاملاً حتى الطابق العلوي.

قاطعه حليم وهو ينظر الى كريم:

- اسمع لقد أصبحت الآن عضواً ضمن فريقنا، ويجب عليك أن تتعلم قواعدنا، أول قاعدة (يجب ألا تقع في بحر الحب والا ستغرق وتُغرقنا معك)، سنقوم بتعليمك كل شيء في الوقت المناسب.

يضرب زياد بيده على مقود السيارة.. وبيده الأخرى على جبهته قائلاً:

- يا الهي، لقد نسيت أن أسألك يا صديقي، ماذا فعلت بمشكلتك مع الدكتور كاتو، أقسم لك أنني حاولت أن أصل لأي شخص له علاقه به .. لكن للأسف لم أنجح.

ضحك حليم قليلاً ثم قال:

- لا تقلق.. لقد أصبحنا أصدقاء

نظر كريم بصدمة:

- كيف حدث ذلك!

رد زياد منبهراً:

- لقد استطعت أن تنفذ قاعدة (ثغرة القلب) لقد بلغت أقصى درجات الاختراق يا رجل.

سألها كريم متعجباً:

- ما هي قاعدة ثغرة القلب؟

رد حليم بثقة:

- لكل شيء في هذا العالم ثغرة، إن أول محاضرة يعلمونها لطلاب الهندسة في محاضرة (الاختراق الحميد).. هي ثغرات البرمجة في أجهزة الحواسيب، فلكي تخترق أي جهاز.. يجب أن تعلم الثغرات الموجودة في تلك الأجهزة، حتى تستطيع اختراق أنظمتها من خلال تلك الثغرات، ولكن ثغرة القلب.. هي أن تخترق الشخص الذي يجلس أمامك .. من خلال البحث عن ثغرة موجودة في قلب ذلك الشخص، ومحاولة الدخول لقلبه من خلال تلك الثغرة، ولكني تأثرت كثيراً بالدكتور كاتو.. وفي الواقع أصبحنا أصدقاء حقيقيين.

قاطعه كريم من جديد:

- أعلم أن أسئلتي كثيره، ولكن كيف استطعت أن تجد وقتاً لتبحث عن ثغرات برمجية.. وتخترق كل تلك الأجهزة!

ابتسم حليم وهو يصفق قائلاً:

- لقد أصبحت تفكر الآن بطريقة سليمة، بالطبع طريقة البحث عن الثغرات صعبة للغاية.. وتحتاج الى مبرمج عبقري.. بل ذكاؤه يفوق من يعملون في شركة "مايكروسوفت"، حتى يتوصل الى تلك الثغرات.. بل وتحتاج الى وقت قد يصل الى سنوات، وما أفعله هو أنني أنا من يقوم بإنشاء تلك الثغرات، طبعاً بعد ذلك تشفيرها ومزجها بتلك الملفات التي يتبادلونها، ومن خلال تلك الثغره.. أقوم بالاختراق والتحكم بأجهزتهم بسهولة..

كان ذلك اليوم مميزاً جداً لكريم.. فقد تعلم الكثير من حليم وزياد، ولكن حليماً لم يهدأ له بال، وظل يبحث طوال الليل في أجهزته، وفي نفس الوقت يدرس لامتحان الغد، رغم أن حليماً لديه جميع الامتحانات، إلا انه لا يؤمن بالصدفة ، كما أنه لم ينسَ ذلك الوعد الذي قطعه قبل دخوله الجامعة، وأنه مستعد أن يخالف القانون.. في سبيل إنقاذ حياة أي شخص "فلا شيء يعلو فوق قانون الانسانية"..

في صباح اليوم التالي.. وقف حليم مع كريم خارج القاعة الى أن بدأ الامتحان، إنه امتحان "البرمجة" للدكتورة غادة، الجميع يمسكون الأوراق هنا وهناك قبل الامتحان الا حليم، من أجمل المناظر حينما تنظر في وجوه هؤلاء.. وهم يدرسون في تلك الدقائق المعدودة، إنه أشبه بتلك اللحظة التي يحتضر فيها الانسان .. عندما يمر شريط حياته أمام عينيه، لا يعلم ما ينتظره إن أغمض عينيه بعد ذلك!

لاحظ حليم نظرات الفتيات.. اللاتي يقفن في زاوية الممر.. يتهامسن فيما بينهن ويضحكن وهن يراقبنه، إنهن صديقات الدكتورة غادة، ولكن يبدو ان هناك عضواً جديداً انضم اليهن .. إنها اسراء التي تدرس مادة "مهارات الحاسوب" مع حليم.. لابد أنها أخبرتهن بذلك الاستدعاء، فجأه بدأ الجميع يتوافدون نحو القاعة، لقد بدأ الامتحان وأصبحت الأوراق جاهزة، ما إن جلس حليم وفتح ورقته، حتى عمّ الصمت الذي سيطر على المكان، حتى أن أصوت الأقلام لم تعد مسموعه، ليجد حليم الدكتورة غادة واقفةً بجانبه، لقد نجح الفخ الذي أعدته

الدكتورة لامتحان جديد تماماً وغير مكرر.. اقتربت الدكتورة من حليم وهي تهمس في أذنه:

- أرجو أن ينال امتحان اليوم اعجابك، بالمناسبة لا تتأخر كثيراً.. فلجنة التحقيق في كلية الهندسة بانتظارك.

لكنها لم تتوقع أن تجد حليما ممسكاً بقلمه ويجيب ببراعة ..

أجابها حليم بتلك الابتسامه الباردة:

- لا تقلقي علي، فدرجة واحدة تكفيني لكي أنجح في مادتك.

مر الوقت والجميع يحدقون ببعضهم البعض تارة، ويحدقون بالدكتورة غادة تارة أخرى .. لقد كانت بالفعل صدمة كبيرة لم يتوقعها أحد، حتى انتهى حليم من ورقته وقام بتسليمها، فطلبت منه الدكتورة أن يتواجد في مكتبها بعد الانتهاء من التحقيق..

بينما يمضي حليم في خطواته حاملاً أوراقه وبعض الملفات بين يديه، حتى راودته تلك الأفكار عن مصيره بعد ذلك التحقيق، وصل حليم الى قاعة الاجتماعات في كلية الهندسة، ووجد لجنة التحقيق بانتظاره، جلس حليم على ذلك الكرسي أمام طاولة اللجنة .. رحب به الدكتور عصام:

- أهلاً بك يا حليم، في البداية أعرفك بنا، أنا الدكتور عصام عميد كلية الهندسة، وهذا الدكتور هاني المسؤول عن مادة "مهارات الحاسوب"، أما الدكتورة رانيا فهي نائبة العميد.

ابتسم حليم بكل هدوء:

- تشرفت بحضراتكم، لقد أخبرني أحدهم أن علي الحضور اليوم للتحقيق معي، لا أعلم ما الموضوع بالضبط!، هل من الممكن أن أعرف سبب استدعائي للتحقيق؟

أجابه الدكتور هاني:

- ألا تعرف حقا يا حليم!.. لقد حققت المئة في مادة "مهارات الحاسوب"، لم يحقق أي طالب تلك النتيجة منذ أن تأسست الجامعة!

ابتسم حليم بسخرية ثم قال:

- هل قالوا أن الملائكة هي فقط من تكسر حاجز المئة!.. هل كتبوا في قوانين الجامعة أنه ممنوع الوصول لدرجة المئة!

ردت الدكتورة رانيا غاضبة:

- لكن الملائكة لا تسرق أو تغش يا حليم، لقد راجعنا أوراقك الامتحانية وكلها صحيحة، كما أننا راجعنا كاميرات المراقبة ولم نلاحظ شيئاً، ولكننا متأكدون أنك كنت تملك جميع الأوراق الامتحانية، لم نتخذ أي إجراء

لفحص أجهزتنا من الاختراق بعد، ولكن إن غيرت رأيك وقررت الاعتراف، سنعفوا عنك.. مقابل أن تخبرنا عن كل ما حدث بالتفصيل.

ثم نظر اليه الدكتور عصام قائلاً:

- بصفتي عميد الكلية.. أعدك ان اعترفت الآن، أن أعفيك من أي عقوبات جنائية، ولن نتصل بالشرطة.. سنكتفي فقط بالعقوبات الاكاديمية.

سأل حليم بسخرية:

- حسناً، وما هي العقوبات الاكاديمية؟

أجابه الدكتور هاني بجدية:

- عقوبة الغش في احد الامتحانات.. هي أن تأخذ صفراً في كل المواد الفصلية، ولكن لا تقلق يمكنك عمل استرحام بعدها لرئيس الجامعة، وبالتأكيد الدكتور عصام سيكتب تقريراً أيضاً لمساعدتك، لتخفف عنك العقوبه بعد ذلك للنصف.. وتعيد نصف المواد فقط، وبالتأكيد هذا أفضل من أن يتم ادانتك.. وينتهي بك الحال الى السجن.

رد حليم مسرعاً:

- حسناً أنا موافق، سأعترف بكل شئ..

نظر الجميع الى بعضهم باستغراب!

ثم أكمل حليم:

- لمَ الاستغراب، لقد اقتنعت بكلام الدكتورة رانيا، لذا سأسلمها دليل ادانتي بنفسي..

أمسك حليم بملف خاص كان بحوزته مدون عليه اسم الدكتورة رانيا، ثم عاد من جديد الى كرسيه ..

عم السكون قليلاً المكان، ليسأل الدكتور عصام:

- هيا يا دكتورة من فضلك، اقرأي تلك الأوراق..

تبلع الدكتورة رانيا ريقها وتكمل صمتها بتلك العيون الجاحظة!..

ابتسم حليم بسخريه مرة أخرى وهو يقول:

- لمَ لا تقرأين علينا دليل ادانتي يا دكتورة، إنها الطريقة الأولى التي سرقت بها الامتحان، لم أكن أنوي أن أخبركم في البداية، ولكن بعد أن اقتنعت بكلام الدكتورة، سأعترف بأول طريقة، هل أحد يعرف شخصاً يدعى "الشيخ راشد"، أجل لقد حضر فقط امتحان المنتصف والامتحان النهائي، ومع ذلك نجح بامتياز في مادة الدكتورة رانيا، لقد حضر يومه الأول في مكتب الدكتورة رانيا.. ومع مفاتيح تلك السيارة الجديدة الفارهة، وذلك في مقابل بسيط.. أن ينجح بامتياز، لقد أهدته الدكتورة رانيا امتحانات الحاسوب بالكامل العام السابق، رغم حصول راشد على

تلك الاوراق.. ولكنه لم يستطع حتى النجاح، لتعده الدكتورة بأن تحل له تلك الاوراق الامتحانية بنفسها، فقط كل ما عليه فعله أن يكتب اسمه غلى الورقة بنفسه، لأحصل أنا بعد ذلك على تلك الأوراق بطريقتي..

ردت الدكتورة رانيا بتوتر وغضب.. ويدها التي تحمل الاوراق ترتجف:

- أنت شخص كاذب وتحاول الخروج عن القضية بتلك التفاهات، أعدك أنك لن تفلت من العقاب.

ابتسم حليم قليلاً بصمت.. ثم قال:

- حسناً.. يمكننا التأكد في مركز المرور عن أخر مالكين لتلك السيارة.. فعلى حسب معلوماتي أنك قد قمتي ببيعها.. كما أن لدي صوراً من أوراق الملكيه الخاصة بكِ.. ستجدينها في أخر تلك المستندات!

ردت الدكتورة رانيا والدموع تملأ عينيها.. فوقعت الأوراق من يدها وبدأت تمسح دموعها:

- حسناً سأعترف.. سأعترف بكل شيء.. لقد ارتكبت جريمة، ولكن لم أستطع أن أرفض ذلك العرض، فقد كنت في أمس الحاجة للمال، لقد كانت تكاليف علاج والدتي ضخمة ولم اتحملها، لم أستطع أن أراها تتعذب وتتألم أمام عيني.. وأنا واقفة مكتوفة اليدين، لقد حاولت أن أدبر المال بشتى الطرق لتلك العملية الجراحية.. ولكن لم أنجح، لم يكن أمامي

سوى تلك الطريقة، وافقت على ذلك العرض واخذت السيارة وقمت ببيعها، أعلم أنني مذنبة ولكن أنا مستعدة أن أكفر عن ذنبي، وأعيد تلك النقود فيما بعد.. للأغراض البحثية في الجامعة.

نظر الدكتور هاني الى حليم قائلاً:

- لا شأن لك بهذا الموضوع.. نحن هنا من أجلك أنت فقط، هل تحسب نفسك ذكياً.. ربما قد أخذك الغرور بعد درجة المئة الكاذبة!

قام بعد ذلك حليم من مكانه.. حاملاً ذلك الملف الخاص بالدكتور هاني، ثم سلمه ذلك الملف وعاد الى مكانه من جديد ..

ينظر الدكتور عصام الى الدكتور هاني ساخراً وهو يقول:

- ماذا عنك يا هاني، هل حصلت أنت أيضاً على سيارة جديدة من "الشيخ راشد"!.. ليتني كنت مشرفاً على تدريس ذلك الطالب..

ضحك حليم قليلاً ثم أكمل:

- لا للأسف يا دكتور عصام، الأمر لم يكن كذلك مع الدكتور هاني..

ثم نظر حليم الى الدكتور هاني وهو يقول:

- هل تسمح لي يا دكتور هاني.. أن أشرح الطريقة الثانية في حصولي على الامتحان؟ فقد اقتنعت أيضاً بعرضك الذي قدمته، لن يكون هناك

عقوبات جنائية، وأيضاً سيفيدني ذلك الاسترحام بأن أعيد نصف موادي من جديد.

فتح الدكتور هاني ذلك الملف ويداه ترتجفان.. ليجد بداخله مجموعه من الأوراق.. مرفقةً بصورة مع إحدى الطالبات في مكتبه..

نظر اليه حليم بابتسامة ساخرة قائلاً:

- بينما كنت أحصل على امتحان هذه السنه من تلك الطالبة، حصلت بالصدفة على ذلك الفيديو، لا داعي لأن أذكر اسم تلك الفتاة، ولكن علمت بعد ذلك بالاتفاق الجنسي.. الذي دار بينها وبين الدكتور هاني في مكتبه، لكن ما لم يحسب حسابه الدكتور هاني.. أن تلك الفتاه قد قامت بتصوير كل شئ، واحتفظت بذلك الفيديو لديها.. كوسيلة أمان في حالة الغدر.. إنه ابتزاز جنسي مقابل النجاح!

ثم نظر حليم بنظرات ساخرة الى الدكتور هاني وأكمل:

- ربما لو كتبت استرحاماً الى اهل تلك الفتاة.. لا أعلم ربما اكتفوا فقط بقتلك بلا رحمة.. أنت تعرف العادات القبلية المجنونة هنا بالتأكيد!

نظر حليم الى الدكتور عصام.. ثم وقف من جديد ممسكاً آخر ملف، إنه الملف الخاص بالدكتور عصام عميد الكلية ..

أشار الدكتور عصام له بالتوقف.. والعرق يملأ وجهه قائلاً:

- حسناً حسناً، توقف وعد الى مكانك .. سأعرض عليك عرضاً أفضل، اعترف أنني أنا أيضاً مذنب مثلهما تماماً، كلنا مذنبون .. لذا اعتبر أن ما نقوم به الآن.. هو مجرد دردشة صباحية، يوجد لدينا الآن مشكلة، ما هي الحلول التي تقترحها لتلك المشكلة؟

عاد حليم وجلس هادئاً قليلاً ثم أجاب:

- طالما أنها مجرد دردشة صباحية .. فأنا أريد اعتذاراً خاصاً عن طريق البريد الالكتروني.. لجميع من بالجامعة.. بأن ما حدث كان خطأ غير مقصود، أما بالنسبة للحل .. فهو عن طريق الاجابة على سؤالي؟ هل تستطيع أن تضع أموالك في بنك لا يوجد به كاميرات مراقبة؟

فكر الأستاذ عصام قليلاً ثم أجابه:

- حسناً ستقوم الأستاذة نورة سكرتيرة الكلية.. بكتابة طلب الاعتذار الآن، ولكن أن تضع كاميرات مراقبة في مكاتب الدكاترة لتراقب سلوكياتهم، لا أعلم.. ولكن ألا ترى أنها إهانة لهم!

رد حليم منفعلاً:

- وهل من يعملون بالبنوك يشعرون بالاهانة؟ إنها أمانة علمية.. ويجب أن نحافظ عليها، ثم إنه من قال أن تلك الكاميرات لمراقبة سلوكيات

الدكاترة! عندما غزت أمريكا العراق.. لم تقل أنها ستسرق النفظ وثروات العراق..

ردت الدكتورة رانيا:

- صحيح.. كان هدفها حماية العالم من "اليورانيوم" الموجود في العراق، إنها فكرة رائعة جداً، وإن وافق الدكتور عصام.. سأقوم بتجهيز الطلب لرئيس الجامعة.

ابتسم الدكتور عصام قائلاً:

- من جهتي أنا موافق، ولكن انتبهي أن تذكري في الطلب أن تلك الكاميرات لليورانيوم، فلتكن لحماية المكاتب في عدم تواجد الدكاترة فيها.

ثم نظر الى حليم وأكمل:

- أشكرك يا حليم، أعلم أن ذلك لن يقضي على التحيز الموجود بالجامعة، ولكن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة، وأيضاً أنصحك كابني الصغير.. بالتوقف عما تفعله، لأن نهايته وخيمة للغاية، يمكنك الذهاب الآن إن أردت ذلك، لقد انتهينا.. ولكن قبل مغادرتك.. أرجو أن تسلمني ذلك الملف الخاص بي..

وقف حليم قائلاً قبل المغادرة:

- لا تقلق يا دكتور عصام، أعلم كيف أحمي نفسي جيداً، تفضل هذا هو ملفك..

غادر حليم.. ذاهباً الى مكتب الدكتورة غادة، وفي طريقه وجد صديقه زياداً بالصدفة، سأله زياد عما حدث معه في التحقيق، فطمأنه حليم وأخبره أن ينتظره بالليل، ليخبره عما حدث بالتفصيل، ثم غادر حليم مكملاً طريقه الى مكتب الدكتورة غادة، وبعد أن وصل حليم الى باب الغرفة.. ممسكاً بيده على المقبض، لا يعلم هل يفتح ويدخل.. أم أنه لا فائدة، فتح حليم الباب أخيراً وقرر الدخول، ليجد الغرفة مليئة عن بكرة أبيها بالطلاب.. نظرت الدكتورة غادة الى حليم بترحاب قائلة:

- أهلا بك يا حليم تفضل بالجلوس، أما البقية أرجو منكم أن تتركونا قليلاً..

ردت إحدى الطالبات:

- حسناً يا دكتورة، ولكن أرجوكِ ساعدينا.. وإلا سنعيد المادة من جديد.

أجابتها الدكتورة مبتسمة:

- لا تقلقي.. سنتحدث في ذلك فيما بعد.

خرج الجميع من الغرفة .. ثم جلس حليم أمام مكتب الدكتورة..

سألته الدكتورة غادة:

- ماذا فعلت بالتحقيق؟ هل هناك مشكلة أو اتهموك بشيء؟

- لا تقلقي يا دكتورة، لقد كان مجرد خطأ منهم، يمكنك أن تراجعي البريد الالكتروني .. هناك اعتذار رسمي عما حدث معي.

فتحت الدكتورة البريد الالكتروني:

- نعم صحيح .. لقد أرسلوا بالفعل تعميماً واعتذاراً رسمي بحقك عبر البريد الالكتروني، حسناً دعني أخبرك بالسبب الرئيسي لطلبي حضورك الى مكتبي..

رد حليم مبتسماً:

- بالتأكيد .. تفضلي يا دكتورة..

تنظر اليه الدكتورة مستاءة وهي تقول:

- حسناً.. من الشجاعة أن يعترف المرء بخطئه، لقد أخطأت بحقك كثيراً يا حليم، لقد كنت أميز فئة من الطلاب.. على حساب فئة أخرى، كنت أقرر درجات كل طالب.. من خلال أشكالهم وألوانهم فقط، إن أسعد لحظات حياتي.. عندما أراهم جميعاً حولي باستمرار، حتى في المناسبات.. يأتون للاحتفال معي في مكتبي، بل وأحياناً يأتون الى منزلي، ولكن مع

اقتراب الامتحانات النهائية.. وخصوصاً أنها المادة الأخيرة لي معكم، لم يعد أحد يأتي الي، حتى هاتفي الذي كان لا يهنأ بالهدوء، كأنه الآن أصيب بسكتة قلبية، لذا قررت أن أفاجئ الجميع بذلك الاختبار، ولكني صدمت عندما رأيتك تحل غير مهتم!

رد حليم مذهولاً:

- بل أنا المصدوم مما يحدث الآن..

ضحكت الدكتورة غادة ثم تابعت:

- بل أنا من صدمت.. عندما رأيتك ممسكاً بقلمك وتحل الامتحان، لقد تعمدت أن يكون مختلفاً كلياً هذا العام، رغم استسلام الجميع.. واكتفائهم فقط بالنظر الي، وأيضاً كما أخبرتني لا ينقصك سوى درجة واحدة للنجاح، إلا أنني وجدت في عينيك ذلك المحارب.. الذي لا يريد الاستسلام، أرجو أن تسامحني..

وقفت الدكتورة وجلست على الكرسي المقابل لحليم ممسكةً بيده وهي تقول:

- من اليوم كل طالب سيأخذ حقه فقط.. لقد تغيرت بسببك يا حليم.. شكراً لك.

نظر اليها حليم مبتسماً:

- بالتأكيد سأسامحك يا دكتورة.. أشكرك أنا أيضاً على تلك الشجاعة، أنا سعيد للغاية لسماع ذلك.

في الليل يجلس حليم وزياد و كريم في ذلك المقهى للاسترخاء قليلاً، لقد كان يوماً عصيباً جداً، ولكن في نفس الوقت.. كانت غنائم ذلك اليوم كثيرة، لم يستطع كريم وزياد الانتظار.. شرعوا يتحاورون حول ما حدث في ذلك اليوم العاصف..

قال زياد مندهشاً:

- لم أتوقع أن تقوم بتحضير كل ذلك يا حليم في يوم واحد!

أجابه حليم بثقة:

- من قال أنني حضرت كل ذلك في يوم واحد! أخبرتك أنني لا أؤمن بالصدفة، لقد كان لدي ملف خاص.. بكل موظف في الجامعة، كل ما فعلته في تلك الليلة.. هو أنني بحثت عن أسماء المسؤولين عن التحقيق، وطبعت تلك الأوراق الخاصة بهم، ثم أكملت بعد ذلك دراستي.

سأله كريم باستغراب:

- ولكنك لم تخبرنا يا حليم.. عن الملف الخاص بالعميد!

ضحك حليم ساخراً.. ثم قال:

- أجل صحيح، ذلك الملف الذي قمت بتسليمه له قبل مغادرتي، في الحقيقة.. كان يحتوي على أوراق بيضاء، هل تتذكر يا زياد قاعدة "كش ملك"!

قاطعه زياد سريعاً:

- أجل بالطبع.. اذا كنت تحارب جيشاً أكثر منك عدداً، أجبرهم على الانسحاب ولا تحارب قائدهم، لأنه الوحيد الذي بيده قرار الانسحاب.

رد كريم مستهزئاً:

- لو كنت قتلت الملك لأرحتنا يا رجل.

ضحك الجميع بعدها وأكملوا سهرتهم، فما أجمل أن تنتصر في حربك بدون دماء، لتغير بعد ذلك طريقة تفكير أحدهم، لم يكن من السهل أن تعيش بينهم .. يبتسمون لك وتبتسم لهم.. وأنت تعلم جميع خفاياهم، ليس من السهل أيضاً أن تحارب تلك الأفكار العنصرية.. في مكان متعدد اللغات والثقافات.. يعيش به أكثر من ثلاثمئة جنسية مختلفة!

٥

خُيُوطُ الأمَلِ

بينما يجلس حليم وبجانبه كريم.. في أحد القاعات التابعة لكلية الهندسة، جلس بالقرب منهما طالب من أبناء الوطن.. يتزين بثياب الخليج التقليديه.. تفوح منه رائحة المسك العطرة، لم تبدأ المحاضرة بعد .. ولكن لا أحد يستطيع تحمل أشعة الشمس الحارقة بالخارج .. بالأخص إن كنت قررت قضاء ذلك الصيف في الخليج العربي، ولكن ذلك الشاب تبدو عليه علامات التذمر.. اقترب منه كريم وسأله:

- ما بك يا صديقي، لمَ كل هذا الضيق؟

أجابه ذلك الشاب:

- إننا نعيش في عالم يملؤه الكذب والخداع، الجميع هنا منافقون!

رد كريم مندهشاً:

- على رسلك يا صديقي.. ما هي مشكلتك يا صديقي، فلربما استطعت أن أساعدك أنا وصديقي.

سأله ذلك الشاب:

- من أنتما؟ وما هو تخصصكما؟

- أنا "كريم" ، وهذا صديقي "حليم".. أنا أدرس علوم الصيدلة، أما حليم فيدرس هندسة الحاسوب، ماذا عنك؟

- أنا "سالم" أدرس في كلية القانون، إذن سأطرح عليكما سؤالاً، هل تشعران بالعدل في هذه الجامعة؟

نظر كريم الى حليم متعجباً ثم قال:

- لا .. لم نشعر بالعدل، ولكن لمَ تسأل؟، إنه لأمر غريب أن تكون من أبناء هذا البلد.. وتشعر بالظلم والخذلان!

رد سالم بانزعاج:

- وما الغريب في ذلك، هل من العدل.. أن يكون أحدهم قد رسب في مادة القانون التشريعي، ثم تذهب صديقته الى دكتور المادة، لتتحول نتيجته فجأة الى النجاح بامتياز في اليوم التالي!

قاطعه حليم سريعاً:

- سأطرح عليك سؤالاً يا سالم.. بما أنك تدرس القانون، ولكن عدني أولاً.. ألا تنزعج من ذلك السؤال.

- لا تخف لن أنزعج .. تفضل؟

يسأله حليم بهدوء

- أنا وأنت وغيرنا ولدنا فوق هذه الأرض، هل من العدل ألا أدخل الجامعة الحكومية هنا.. إلا بعد أن أجد ما يسمى بالواسطة! وبعد الواسطة يتم رفض طلبي!

رد سالم منحرجاً:

- إنه حق من حقوقك أن تدرس في أي مكان.. حتى وإن ولدت خارجاً، بل من يولد في أي شبر من هذا الوطن، يستحق أن يكون من أبناء هذا البلد.. كما يفعل الغرب تماماً، ولكن هذا دستورنا وقانون الدولة.. ويجب أن نعمل به.. ثم لو افترضنا أنني أو غيري وُلدنا على أرض بلادك لما استطعنا الحصول على جنسية وطنك أيضاً.. يا صديقي كل بلادنا تتعامل بنفس الطريقة.

تابع حليم كلامه:

- بعد ذلك الظلم الذي نتعرض له .. عاهدت نفسي أن أساعد أي شخص بحاجة للمساعدة، حتى لو كان ذلك مخالفاً للقانون، ولكن اذا وقعت بين يديك في يوم من الأيام، هل ستقوم بحبسي..؟

التفت كريم الى حليم مندهشاً.. ثم رد سالم حائراً:

- انظر يا حليم.. سأخبرك سراً من أسراري التي لا أبوح بها لأحد، والدي مستشار ورئيس المحكمة المحلية في المدينة.. منذ عشرة أعوام

تقريباً.. حكم على أحدهم بالسجن المؤبد، وذلك في قضية الاتجار بالمواد المخدرة مع ثبوت الأدلة الجنائية ضده، ذلك الرجل توفي في الحجز.. حتى قبل أن يدافع عن نفسه..

صمت سالم قليلاً ثم تابع:

- الغريب في الأمر أن تلك الحادثه تكررت كثيراً، والدي لم يقتنع بما جرى، ولكنه رضخ للأمر الواقع .. كأي رجل قانون قد أدى مهمته وانتهت، في القريب اكتشف والدي بالصدفة.. سقوط رئيس العصابة الحقيقي.. أما الآخرون فكانوا مجرد أقنعة.. يختبئ وراءهم ذلك المجرم.. بل ويتخلص منهم وهم في الحجز، حتى قبل أن يدلوا باعترافاتهم، تخيلت نفسي لو كنت مكان والدي في يوم من الأيام، أن أشعر بوجود الظلم وأنا مقيد بحبل الوقائع والادلة..

قاطعه حليم متأثراً:

- ماذا كنت ستفعل!

رد سالم بثقة:

- بالتأكيد لن أنهي مهمتي بتلك السهولة.. الا عندما أتأكد أن ما فعلته هو العدل، لقد دخلت كلية القانون بناءً على رغبة والدي، ولكن في اليوم الذي سأجلس فيه على طاولة القضاء.. سأحكم بما يمليه عليه ضميري.

سأله حليم:

- حتى وإن كان ضميرك مخالفاً للقانون!

جلس سالم يفكر قليلاً ثم أجاب بعد أن اتخذ قراره بثقة:

- حتى وإن كان ضميري مخالفاً للقانون .. سأحكم بالعدل، أما بالنسبة للقوانين.. فنحن من يشرعها، وخير دليل أنها ليست قوانين دائمة، بل تتغير باستمرار.. لتتماشى مع الظروف الزمنية الجديدة، وإن وقعت في يدي يا صديقي يوماً ما.. وأنت تخالف القانون بهدف مساعدة الناس، أعدك أن أساعدك لتغيير ذلك القانون، حتى لو اضطررت لأن أفقد وظيفتي!

صافح حليم سالم قائلاً:

- أهلاً بك صديقاً جديداً اذاً، مادمت تؤمن بنفس مبادئنا..

صافحه سالم أيضاً قائلاً:

- لي الشرف بذلك يا صديقي.

ثم دخل دكتور المادة وبدأت المحاضرة ..

مرت الساعات.. وانتقل حليم بعد ذلك مرافقاً كريماً الى كلية الصيدلة، ليتفاجئا فور وصولهما بذلك الدكتور الجديد.. الجميع يتحدث

عنه بالممرات، يبدو أنه شخصية فريدة جداً.. فلا أحد يقف الا وهمس بذلك الاسم "مالك"، إنها ليست كلية حليم بالطبع.. ولكنه فضل الحضور معه تلك المحاضرة متخفياً.. أفضل من الجلوس خارجاً في ذلك الطقس الحارق..

التقى حليم و كريم بباقي الزملاء قبل الدخول للقاعة.. وبدأت المحاضرة وبدأ الجميع يتدفقون الى داخل القاعة.. والجلوس في أماكنهم.. التفت كريم لصديقه حليم قائلاً بصوت خافت:

- من هذا الدكتور الجديد.. لم أره هنا من قبل!

رد حليم:

- لا أعلم يا صديقي.. فأنا لست معك في الصيدلة.

رد كريم سريعاً:

- وبمَ تفكر..؟

قاطع حديثهما ذلك الدكتور:

- صباح الخير جميعاً.. أنا الدكتور "مالك".. وهذا يومي الأول في الجامعة.. وأيضاً المحاضرة الأولى لي هنا.. اسمحوا لي فقد تكون طريقتي بدائية قليلاً.. فأنا لا أشرح بالحاسوب ولا بتلك التقنيات الجديدة.. ولكني متأكد أنكم ستأخذون العلم الكافي مني.. دعونا نتعرف اليوم على

بعضنا البعض.. ونشرح جزءاً بسيطاً لا يتعدى العشر دقائق.. هيا لنبدأ بالترتيب من اليمين..

وبدأ الجميع بتعريف نفسه.. بعد ذلك بدأ الدكتور بشرح القليل كما وعدهم.. حتى انتهى وانصرف الجميع.

في اليوم التالي.. بعد أن اصطف حليم في مواقف السيارات.. التقى حليم صديقه كريماً.. ليذهب كل منهما الى كليته.. فلم يتبقَّ الا دقائق لتبدأ المحاضرة لكل منهما.. وبينما يجلس الدكتور مالك على تلك الطاولة.. ممسكاً بورقة يتفحصها بعناية.. فجأة ينطق باسم "كريم".. نظر كريم اليه مندهشاً.. فسأله الدكتور مالك:

- هل تستطيع الوقوف.. وتلخيص ما قمنا بشرحه بالأمس بصوتٍ مرتفع؟

ابتسم كريم بخجل.. وظلَّ لا ينبس ببنت شفة..

طلب منه الدكتور مالك مجدداً:

- أرجو منك الوقوف، والتحدث بصوت عالٍ أمام الجميع، وتعريف أنواع "البحوث الدوائية" التي شرحناها بالأمس، وقم بشرحها جميعاً بالتفصيل؟

وقف كريم مبتسماً بحرج.. ثم لوّح برأسه بعدم المقدرة على الاجابة قائلاً:

- في الحقيقة.. لا أعرف.

أمسك الدكتور مالك بقلم وهو يقول:

- حسناً.. سوف أضع خطاً تحت اسمك لاسألك بالغد.. والآن "سارة" تفضلي بالاجابة على نفس السؤال..

في الجانب الآخر من القاعة.. حيث يفصل بين الشباب والبنات بذلك الحاجز المتحرك.. إنها قوانين وعادات الدولة القبلية.. فلا يسمح بالاختلاط بأي شكل..

- ظلت سارة صامته لا ترد.. حتى عمَّ الصمت المكان

أمسك الدكتور مالك الورقة من جديد.. والجميع نظراتهم تترقب الاسم التالي.. حتى سأل من جديد:

- حسناً دعونا نرى.. "حنان".. تفضلي.. أريدك أن تعيدي صيغة السؤال الذي طرحته على زميليكِ فقط؟

حتى "حنان" لم تستطع أن تتذكر السؤال الذي تم طرحه.. ربما من واقع الصدمة التي غطت المكان.. والذهول الذي سيطر على أعين الجميع.. لم يستطع أحد التكلم أو المشاركة حتى.. أحياناً قد تنسينا الصدمات أشياء كثيرة.. لقد تعودنا على الخطأ كل تلك الفترة.. حتى أصبح الصحيح صدمة أليمة لنا!!

انتهت تلك المحاضرة.. إنه نفس الروتين اليومي المعتاد.. الشمس تشع بأشعتها الحارقه.. لا تفرق بين صيف أو شتاء.. تكاد الأرصفة تذوب على الشوارع التي تغلي هي أيضاً.. ويتصاعد منها البخار للأعلى.. لا يوجد مأوى الا مكتبة الجامعة المكيفة.. حيث ذلك المنقذ الرائع الذي يلقبونه بالمبرد المركزي "التكييف المركزي".. الجميع يتواجدون هناك بلا استثناء.. ما بين عشاق القراءة والتصفح.. وتلك الحلقات النقاشية بين الشباب.. ومن اكتفوا بالجلوس منفردين على هواتفهم.. وهؤلاء الفارين من غضب الطبيعة بالخارج..

دخل حليم برفقة كريم للمكتبة.. ثم التقيا بصديقهما زياد الذي يجلس منفرداً ينتظرهما.. نظر زياد الى كريم متعجباً يسأله:

- ما أخبار أول محاضرة مع ذلك الدكتور الجديد؟

رد كريم باستياء:

- لا أعلم، لكن ان كان حقاً ما قاله بالأمس صحيحاً، فلن نستطيع الاستمرار بخطتنا وقواعدنا.

سأله زياد مصدوماً:

- وما الذي قاله بالأمس؟

أجابه حليم بهدوء:

- لقد كنت حاضراً تلك المحاضرة مع كريم ، سمعته يقول أنه لن يشرح باستخدام تلك الأجهزة المعقدة الجديدة، إنه يؤمن بالأساليب القديمة.. فهي الأكثر نفعاً للطلاب، إنه بالكاد لا يمسك ورقةً أو كتاباً أو مرجعاً وهو يشرح، للأسف لن نستطيع الاستمرار بتلك القواعد بعد الآن مع ذلك الدكتور.

ثم تابع حليم بنبرة حزن:

- للأسف.. يبدو أنه قد جاء الوقت لكسر تلك القواعد.

قاطعه زياد منفعلاً:

- لا تقل ذلك يا صديقي، لابد أن هناك حلاً ما..

رد حليم مبتسماً:

- أجل هناك حلٌ واحد فقط، وهو ما سيفعله كريم..

نظر اليه كريم متعجباً، ثم سأله:

- ما هو ذلك الحل يا صديقي؟

أجابه حليم وهو يضحك:

- أن تدرس بجدية!

كرر كريم تلك العبارة بسخرية:

- أن أدرس بجدية..!

وبدأت ضحكاتهم جميعاً تتعالى.. حتى بدأت أصواتهم تلفت انتباه جميع من كانوا في المكتبه.. ما بين سهولة الحل وسخرية الحقيقة.. الا أن الأسهل دائماً هو المرغوب.. قد يكون الصحيح خطأ يوماً ما.. عندما نعتاد على أن أفعالنا الخاطئة.. كانت صحيحة يوماً ما.. أو أنها كانت واقعاً يجب أن نتأقلم عليه حتى ولو كان خاطئاً..

أشرقت شمس صباح اليوم التالي.. إنه اليوم الأصعب في تاريخ كريم.. ما أصعب تلك اللحظة، عندما تعلم أن هناك من سيحرجك أمام الجميع، قد يكون الهروب من الواقع هو الحل الأفضل.. ولكن الى متى الهروب من المواجهة!

ما إن دخل كريم الى القاعة قبل المحاضرة.. حتى بدأ الجميع ينظر اليه ويضحك، وما إن دخل الدكتور مالك القاعة.. حتى ساد المكان صمتٌ رهيب.. الجميع يحاول ألا تلتقي عيناه بعيني الدكتور مالك الباحثة عن فريستها.. خشية أن يصيب أحدهم بعينيه ويختاره..

فجأة أول ما نطق به الدكتور مالك:

- "كريم".. هيا تفضل..

ليبدأ الجميع بالضحك بصوت مرتفع.. نظر الدكتور مالك الى الجميع متعجباً.. ثم أكمل:

- اشرح لي درس الأمس.. ما هو الـ "بِلاسِيبُو".. تفضل بصوت مرتفع لو سمحت..

وقف كريم بكل ثبات.. وبدأ بالاجابة بثقة كبيرة قائلاً:

- "بِلاسِيبُو".. حسناً عند تسجيل دواء جديد، يقومون بتقييمه على مرضى يتشاركون نفس المرض، فيعطون البعض دواءً حقيقياً وهو ذلك الدواء الجديد، والآخرين يعطونهم "بِلاسِيبُو"، وفي النهاية يقومون بتسجيل النتائج، والتي من المفترض أن تظهر الشفاء بالدواء الحقيقي والجديد، أما البلاسيبو فلن يغير كثيراً!

لينظر اليه الدكتور مالك مبتسماً وهو يقول:

- لماذا لن يحدث "بِلاسِيبُو" نتيجة فعالة؟

فيجيبه كريم بثقة:

- لأنه ببساطة لا يحتوي على المادة الدوائية، ربما كانت تلك المادة جبيبات السكر!

نظر اليه الدكتور مالك متحمساً ثم قال:

- أريد أن أسألك عن شئ لم أقم بذكره في الأمس.. هل دائماً لا يُحدث "بِلاسِيبُو" أي نتائج ايجابية؟!

فكر كريم قليلاً ثم قال:

- أتوقع أن تحدث نتائج ايجابية للبعض، وقد يتم شفاؤهم بالفعل، ولكن لا أعلم السبب.

انفعل الدكتور مالك وبدأ يحييه وهو يقول:

- أحسنت.. أنت ذكي للغاية يا كريم، السبب ببساطة هي "عملية نفسية" يقوم بترجمتها الدماغ وتحويلها الى علاج.. سأضرب لكم مثالاً بسيطاً الآن..

أمسك الدكتور مالك بتفاحة كانت في يده والقاها الى كريم وهو يقول:

- هل يمكنك تذوقها يا كريم، أريد أن اعرف طعمها فقط؟

التقط كريم التفاحة وبدأ بالتهامها ثم قال:

- طعمها حلو يا دكتور..

فجأة تذكر الدكتور شيئاً ثم قال سريعاً:

- آسف تذكرت.. توقف سريعاً عن الأكل، لقد نسيت أن أغسلها بالماء، لابد أنها ملوثة وقد نقلت الجراثيم الى أمعائك.

بدأ حليم بافراغ ما بفمه ممسكاً ببطنه قائلاً:

- أه أه.. بطني يؤلمني، اسمح لي يا دكتور بالتوجه الى العيادة سريعاً..

قاطعه الدكتور مالك وهو يضحك:

- اجلس مكانك يا حليم، لقد كنت أمزح معك، هل تتوقع أن أقوم بإيذائك!

صُدِمَ كريم مفلتاً يده من بطنه، ينظر يميناً ويساراً بعينه مبتسماً غير مستوعب لما حدث، ليتابع الدكتور مالك:

- هل اختفى ذلك الألم!

- أجل، ولكن كيف حدث ذلك يا دكتور؟

ضحك الدكتور مالك قليلاً ثم قال:

- هل رأيت كم نحن عنصريون يا حليم، إنها "العملية النفسية" التي يترجمها الدماغ، هكذا أيضاً نعامل من حولنا، فمثلاً قد نعامل أحدهم بلا مبالة وربما بعدم احترام، وعندما نكتشف أنه من أصحاب النفوذ.. أو أنه

غني ومن الأثرياء، فجأة تتبدل معاملتنا تماماً، مع أنه نفس الشخص ولم يتغير، ولكن النفوس المريضة هي التي تتغير في معاملتها مع الآخرين!.. هذه هي حقيقة الـ "بِلاسِيبُو"!

ثم بدأ الدكتور بإكمال المحاضرة الجديدة.. لقد كان حقاً يوماً مثيراً.. فمع خوف كريم الشديد.. الا أنه أحس بذلك الانجاز.. بعد أن اجتاز تلك العقبة المخيفة.

بدأت الأيام تتوالى.. إنه نفس الروتين اليومي.. حتى أن الجميع.. أصبحوا ينطقون اسم كريم عند بدء المحاضرة.. لقد أصبحت تلك المادة كابوساً حقيقياً لكريم.. فلا وقت يملكه الا للدراسة جيداً.. رغم ذلك كان كريم متألقاً بشدة.. ومشاركاً فعالاً مع الدكتور مالك..

و ذات يوم.. فوجئ الطلاب بالدكتور مالك بعد أن انتهى من المحاضرة.. وإذا به يفاجئهم بسؤال غريب:

- ما رأيكم بمحاضرتي، أريد أسلوباً نقدياً.. لا أريد مجاملات..

إنها الفرصة الثمينه في نظر كريم للانتقام.. فرفع يده فوراً وفاجأ الجميع:

- في الحقيقة يا دكتور محاضرتك.. في الحقيقة.. هي.. مملة .. كما أنني أجدك عنصرياً قليلاً.

ربما كانت تلك أكبر صدمة يتلقاها الدكتور مالك.. حتى أنه صمت لبعض الوقت يفكر.. ولكن الفوضى وأصوات الجميع عمت أرجاء القاعة.. بعد فترة رد الدكتور مالك بعيون حائرة:

- حسناً حسناً.. هدوء لو سمحتم، هناك تعليق من زميلكم.. ويجب أن أعلم السبب.. تفضل يا كريم.. أخبرني لمَ ترى أن محاضرتي مملة؟.. ولمَ تراني شخصاً عنصرياً؟

أجابه كريم مبتسماً:

- المحاضرة مملة لأننا في الحقيقة.. ما إن تبدأ بالشرح حتى نبدأ نحن بالكتابة.. ونستمر بالكتابة حتى تتورم أيدينا.. نحن لم نتعود على ذلك الأسلوب يا دكتور.. تعودنا بأخذ المحاضرات الكترونياً.. ودراستها بالبيت في حواسيبنا، أعترف أن أسلوبك هو الأمثل.. ولكن يجب أن تعطينا بعض الوقت للاستراحة.

ابتسم الدكتور مالك قائلاً:

- حسناً لقد فهمت، معك حق في هذه.. سأعطيكم استراحات ترفيهية في الوسط.. حتى ترتاحوا من الكتابة، والآن أخبرني إذن.. لمَ تراني عنصرياً يا

كريم؟.. بالمناسبة أريد أن أخبركم شيئاً بالنسبة للمشروع المقرر في نهاية المقرر.. لن يأخذ أحد العلامة الكاملة مهما حدث.. والآن تفضل يا كريم أجِبني؟

أجابه كريم بتلك الابتسامة خجلاً:

- عنصرياً لأنه لا يمر يوم.. الا وسألتني أنا أولاً.. حتى إنك في بعض المرات، تكتفي بسؤالنا نحن الشباب.. وتتجاهل سؤال تلك الفتيات!

ضحك الدكتور مالك قليلاً، ثم قال:

- أنت تعلم أن عالمنا عنصري في كل شيء، حتى أن رواتب الشباب أكثر من رواتب البنات.. أنه عالمنا يا كريم.. ومع ذلك سأبدأ بسؤال الفتيات.. ولكن لا أستطيع تجاهلك.. لأنك الوحيد الذي يساعدني بالمراجعة.

انتهت المحاضرة.. وذهب الجميع للاستراحة في المكتبه.. بدأ الجميع ينتقدون كرياً.. ما بين مؤيد لما فعله.. وما بين رافض لذلك، ولكن الجميع اتفقوا أن ما فعله كريم.. سيكون نهايته وخيمة للغاية.. فلو كان محظوظاً قليلاً، ربما يقوم بإعادة تلك المادة فقط العام القادم.. ولكن حلياً

وزياداً كانا مع كريم دائماً.. ربما تلك الكلمات البسيطة منهما.. كانت بمثابة الأيدي الرحيمة التي تربت على ظهره، لتلقي بالسكينة الى قلبه..

لا شيء يؤلم أكثر من هؤلاء ممن حولك.. من يريدون احباطك نفسياً.. لا يتمنون النجاح لأحد.. حتى يبقى الجميع فاشلين مثلهم تماماً.. إنهم يؤمنون بتلك المقولة "إن لم تستطع أن تكون ناجحاً، فاجعل من حولك فاشلين مثلك".. ومع ذلك.. أصوات الأمل التي تكشف عن الصديق الحقيقي.. الذي يحاول خلق خيوط جديدة للأمل.. تلك الأصوات حقاً كفيلة بأن تحيي من في القبور من جديد..!

مرت الأيام وجاء موعد الاختبار الفصلي لتلك المادة.. ربما كان ذلك اليوم.. هو أول يوم حقيقي للجميع.. فلا أحد يملك أي امتحان سابق لتلك المادة.. وما إن بدأ الاختبار، حتى صدم الجميع.. نعم إنه سؤال واحد فقط "اكتب عشرة أمثلة عن أدوية سحبت من السوق الدوائي مع ذكر السبب"..

لقد كانت تلك صدمة كبيرة للجميع.. ولكن كريماً كان مستعداً للاجابة.. لم تمر دقائق حتى توقف قلم كريم عن الاجابة.. لقد نفد

الحبر!! لكن كريماً تعلم من حليم أن يخطط لكل شيء بدقة.. فقد كان يحمل قلماً آخر احتياطياً.. ولكن حتى القلم الاحتياطي خيب ظن كريم أيضاً.. لم يلاحظ كريم عيني الدكتور مالك اللتين كانتا تراقبانه بحرصٍ من بعيد.. وفوجئ بالدكتور مالك وهو يقدم له قلماً أخرجه من جيبه قائلاً:

- اتمنى ألا تخطئ الاجابة بقلمي وتخذلني!

أكمل بعد ذلك كريم الاجابة.. حتى انتهاء وقت الاختبار.. بعد ذلك الاختبار الصادم.. اجتمع جميع الشباب في الاستراحة الخاصة بالجامعة.. و كريم يشعر بالخذلان.. فحتى القدر قرر أن يحاربه في ذلك الاختبار! الجميع ينظرون الى كريم.. نظرات العطف على مصيره البائس بعد ما حدث في ذلك اليوم.. فلا أمل في أن ينجح بالأخص بعد ذلك الاختبار الصعب!

مرت الأيام والمحاضرات.. الى أن ظهرت نتائج الاختبار.. على باب المكتب الخاص بالدكتور مالك.. كانت ورقة النتائج معلقة.. من بين تلك النتائج الكثيرة.. لم يحصل أحد على العلامة النهائية.

بينما يتتبع كريم ورقة الأسماء يائساً.. محاولاً التقاط اسمه من بين تلك الأسماء الكثيرة، ولكن عندما رأى النتيجة الخاصة به.. كانت المفاجأة أنه الوحيد الحاصل على العلامة الكاملة.. بالرغم من أن كريماً اعتاد النتائج النهائية بفضل صديقه حليم.. الا أن تلك النتيجة كانت هي الأغلى في حياته.. كانت تعني له الكثير.. أكثر من مجرد اختبار.. لا أحد يتذوق طعم الفوز ويشعر بمذاقه.. الا من اجتهد وتعب حتى يصل لما يريده.. فالنجاح المصحوب بالغش والخداع ليس له طعم!

ومع اقتراب امتحانات المنتصف.. بدأ البرد يتسلل الى جسد كريم.. فيقعده في البيت مريضاً.. ويمنعه من الذهاب لاختبار المنتصف، ولكن هل سيقبل الدكتور مالك بإعادة الاختبار؟.. ربما كان ذلك السؤال ما يشغل بال كريم طوال فترة مرضه.

وما إن استعاد كريم عافيته من جديد.. وبدأ بالذهاب للجامعة لحضور محاضراته.. حتى التقى الدكتور مالكاً في مكتبه.. فسأله الدكتور مالك مسروراً:

- مرحباً بك يا كريم.. تفضل بالجلوس.. أين كنت الاسبوع الماضي؟

جلس كريم ثم أجاب:

- مرحباً يا دكتور.. أعتذر كثيراً عن تغيبي عن اختبار المنتصف.. ولكني كنت مريضاً في ذلك الوقت

أخرج كريم ورقة من جيبه وسلمها للدكتور قائلاً:

- تفضل يا دكتور..

أخذ الدكتور مالك الورقة متعجباً وهو يقول:

- ما هذه الورقة!

أجابه كريم متردداً:

- انها ورقة العذر الطبي لغيابي.

قاطعه الدكتور مالك ضاحكاً:

- وهل طلبت منك اعذاراً يا كريم.. للأسف أنت لم تعرفني جيداً حتى الآن.. لا أريد أن تكون العلاقة التي بيني وبينك.. أو بين أي أحد من زملائك.. مبنية على مجموعة من الأوراق.. يجب أن تعلم أنني أثق بك تماماً.. والآن هل أنت جاهز للاختبار الآن؟

ابتسم كريم ثم قال:

- بالطبع لا.. فهذا أول يوم أحضره بعد غيابي.. لقد جئت اليوم كي أسلم عليك فقط.. وأحدد معك موعداً لاختباري.. ما رأيك بيوم الغد يا دكتور؟

فكر الدكتور مالك قليلاً ثم أجابه:

- حسناً لا بأس.. إذاً موعدنا غداً في مكتبي الساعة الحادية عشر صباحاً.. هل يناسبك الموعد؟

- نعم يناسبني بالتأكيد.. سأكون هنا في غداً في ذلك الوقت.

ربما كان ذلك جزءاً من حلم زميله حليم.. أن يُعامَل الجميع بلا أوراق.. أن يعامل الجميع بعضهم بقلوبهم.. وليس بلونهم أو عرقهم أو جنسهم أو حتى دينهم.. أن تنتهي العنصرية من تلك الجامعة.. التي تلاحق حليماً ورفاقه بلا رحمة.. بل أن تنتهي العنصرية من ذلك العالم بأكمله!!

في صباح اليوم التالي.. وقبل الساعة الحادية عشر بنصف ساعة.. حضر كريم الى الجامعة بعد أن سهر الليل بأكمله.. يدرس تلك المادة جيداً، حتى لا يخيب أمال الدكتور مالك.. وعند حضور كريم الى مكتب الدكتور.. تسلَّم أوراق الاختبار وبدأ بقراءة الأسئلة.. حتى بدأت ملامح الصدمة تتضح على وجهه..

سأل كريم مذهولاً:

- هل هذا هو الاختبار؟ .. إنها أسئلة متعلقة بمادة العلاج الدوائي "فارماكوثيرابي" في السنة الخامسة.. بل إن الاختبار بأكمله لتلك المادة.. فلا شيء مما درسته بالأمس موجودٌ هنا!

أجابه الدكتور بهدوء وهو يقرأ كتاباً:

- حاول أن تحل ما تعرفه.. أما مالم تعرفه سنناقشه سوياً.. يجب أن تتعلم أن الحياة ليست سهلة.. وأننا معرضون لمواجهة أسئلة لم ندرسها في الكلية.. ربما كان بعضها لا علاقة له بالصيدلة أساساً.. يجب أن تتعلم كيف تواجه أي سؤال لم تدرسه.. كيف ستواجه الفايروسات الجديدة والأوبئة التي لم نسمع بها إذا هاجمتنا وفاجأتنا في المستقبل.. في كل فترة طويلة من الزمن.. يخرج إلينا أحد الفيروسات ويقتل مئات الآلاف وربما الملايين من البشر كفايروس "كورونا".. هل ستنتظر إلى أن يتم دراسة خصائص هذا الفيروس وكيفية القضاء عليه.. حتماً سيموت الكثيرون خلال تلك الفترة..

ثم أشار الدكتور إلى مكتبته الصغيرة في الغرفة وقال:

- أنظر الى مكتبي.. لديك كل الكتب والمراجع التي ستحتاجها.. سأغادر المكتب قليلاً وأترك لك الساحة.. أرجو ألا تخيب ثقتي بك.. بالمناسبة هذا الاختبار لا أعطيه لأي شخص.. أمامك نصف ساعة حتى أعود..

ربما كان ذلك الاختبار هو الأعظم بالنسبة لكريم.. ولكن العائق الوحيد كان هو الوقت.. إنه النوع الخاص من الاختبارات التي تسمى "الكتاب المفتوح".. من بين كل تلك الكتب الكثيرة.. حاول كريم التركيز قليلاً.. فوجد نفسه قادراً على حل معظم الأسئلة.. مرت الدقائق وبدأ العصف الذهني..

حتى عاد الدكتور وجلس على الكرسي قائلاً:

- لقد انتهى الوقت.. وحان وقت تصحيح الاختبار.

تسلَّم الدكتور الورقة وهو يقول:

- رائع.. جميل.. لقد أجبت عن جميع الأسئلة.. كم مرجعاً استعنت به لحل الاخبار؟

ابتسم كريم ثم قال:

- بالطبع لم أستخدم الا مرجعاً واحداً.

- لقد أعطيتك الخيار كي تفتح المراجع والكتب.. فلمَ لم تستعن بالمراجع الكثيرة التي أمامك.. ولماذا غامرت إذن؟!

أجابه كريم بهدوء:

- صحيح أنني غامرت قليلاً.. واكتفيت بالقليل من المعلومات الموثقة لأنقذ الوقت، فلو استعنت حقاً بكل تلك المراجع.. لما استطعت انهاء

نصف الامتحان.. الوقت عندي مع القليل من المعلومات، خير من الكثير من المعلومات التي لن أستطيع الافادة منها.. أن تغامر بحياة مريض على وشك الموت بقرار سريع.. خيرٌ من أن تبحث بحثاً مستفيضاً.. ولكن بعد فوات الأوان!

ابتسم الدكتور قائلاً:

- لقد أعجبني ذلك التفسير كثيراً.

وبدأ الدكتور بتصحيح الورقة.. وظلا يتناقشان في جميع الاسئلة، حتى قرر الدكتور في النهاية استحقاقه للدرجة النهائية في ذلك الاختبار..

سأله الدكتور مازحاً:

- هل مازلتُ عنصرياً كما كنت تراني؟!

رد كريم خجلاً:

- لقد كان قراري سريعاً وخاطئاً.. لقد تعلمت منك الكثير يا دكتور.. يكفي تلك الثقة التي اكتسبتها من اختباراتك.

ضحك الدكتور مالك بشدة ثم قال:

- أعلم أن جميع الأسئلة مسربة.. وموجودة على الشبكة العنكبوتية "الانترنت".. ولكن العلم الحقيقي الذي أردت ايصاله لكم.. هو أن تتعلم كيف تفكر وتتحدى أصعب الظروف.. والآن أعتقد أنك أصبحت

جاهزاً لذلك.. بالمناسبة لقد اطلعت على المشروع الخاص بك.. وأنا عند كلمتي عندما قلت.. أنه لن يأخذ أحد الدرجة الكاملة.. ولكن بالاضافة الى أن مشروعك جميل.. سأقوم بعمل استثناء لذلك القرار.. لأنك حصلت على الدرجة الكاملة بكل الاختبارات.. لذلك تستحق الدرجة الكاملة في ذلك المشروع.

ثم تبدّلت ملامح الدكتور مالك.. وأردف قائلاً بصوت خافت:

- ربما تتساءل عن سر اهتمامي الكبير بعملي.. صحيح؟

اندهش كريم ثم قال متردداً:

- في الحقيقة.. أجل!

أزفر الدكتور ما في صدره سائلاً:

- هل تعرف يا كريم "الطالب سي"؟

زادت دهشة كريم مجيباً:

- لا يا دكتور.. من هو "الطالب سي"؟!

ابتسم الدكتور ساخراً وقال:

- في العام الماضي.. كنت أجلس في مكتبي وأحتسي فنجان قهوتي.. حالي كحال أي زميل لي..

ثم أشار بيده نحو باب الغرفة مردفاً:

- وفجأة دخلت إحدى الطالبات من نفس ذلك الباب.. وجلست أمامي على نفس الكرسي الذي تجلس فيه الآن.. ثم قالت بضحكة ساخرة "أتعلم يا دكتور أنني من أول العام لم أحضر محاضرة واحدة لك!.. وها أنا الآن صيدلانية وأحمل شهادتي بين يدي!"..

ثم ابتلع الدكتور ريقه مكملاً بحزن:

- كانت كلماتها أشبه بصفعة قوية.. فسألتها إن كانت لم تحضر أية محاضرة فكيف لها بأن تنجح.. فأجابتني أن زملاؤها من الشباب كانوا يدونون اسمها في ورقة الحضور!

قاطعه كريم قائلاً:

- ولكن يا دكتور.. حتى وإن قاموا بإثبات حضورها.. كيف لها أن تنجح بالاختبارات وهي لم تحضر محاضرة واحدة!

ابتسم الدكتور مالك ثم قال:

- كان ذلك هو النفس السؤال الذي وجهته لها.. فأخبرتني وهي تضحك ضحكة دنيئة.. أنها كانت تختار الخيار "سي" في أسئلة الاختيار المتعدد.. وكما تعلم فقد أرغمتنا الجامعة على وضع جميع الأسئلة بذلك النمط!.. بل إنَّ العالم بأكمله أصبح يطبّق ذلك النمط الجديد!

سأله كريم منزعجاً:

- وهل تخرجت تلك الفتاة يا دكتور!

هدأ الدكتور قليلاً ملتقطاً ثم أردف بخيبة أمل:

- وهل هناك قانون يمنع ذلك.. أوراقها صحيحة.. وكل شيء على أكمل وجه.. لك أن تتخيل أنها بعد ذلك ستقف أمام المرضى.. هل علمت الآن لمَ اتبعت ذلك الأسلوب معكم!.. لا أريد أن يصبح أحداً من طلابي "الطالب سي".. لقد غيرت تلك الفتاة حياتي بشكل كبير.. حتى أصبحتُ ما عليه الآن.. إنّها أمانة يا كريم ويجب أن أكون أهلاً لتلك الرسالة!

نظر كريم الى الدكتور مالك متفائلاً وهو يقول:

- هل تعلم يا دكتور.. لم يعد يهمني أن أكون متفوقاً أو في المرتبة الأولى.. فبالرغم من حصولي على تلك العلامات الكاملة.. ولكني لم أتعلم الكثير بعد.. أنا سعيد جداً أنني كنت طالباً لديك في يوم من الأيام

أجابه الدكتور ضاحكاً:

- لا داعي للمجاملات.. فالجميع يقول لي تلك العبارة دائماً.. والآن يمكنك الذهاب لمحاضراتك حتى لا تتأخر.

ربما ليست جميع أصابع اليد متشابهة.. ربما ليست جميع البحار مالحة.. ربما ليست جميع النجوم في السماء مضيئة.. فهناك نجوم عظيمة ولكن.. تختبئ بعيداً جداً ولا نستطيع حتى رؤيتها..

ربما لو أصبحت جميع البحار صالحة للشرب.. لاستساغ الجميع وارتوى من مياه الحب.. فما أجمل أن يعيش الجميع في سلام.. بلا كراهية وحقد.. بلا عنصرية واحتقار.. بلا عبودية مقننة.. بلا تفرقة بين شخص وآخر.. أبيض وأسود.. فالجواهر الثمينة من الفحم الأسود.. وبياض الثلج لا أحد يسكنه في الشمال..

والدماء التي تتدفق وتسير في عروقنا.. مهما اختلفت أجناسنا سيظل لونها أحمر.. ربما لم تُخلق الكراهية والحقد والعنصرية.. بل نحن من صنعناها.. ربما لم يُخلق الشر والقتل والسرقات.. بل هذا نتاج ما صنعناه بأيدينا..!

٦

اَلأعْرَاضُ اَلجَانِبِيَّة

إنها السنة الأخيرة من الجامعة، لابد أن الكثير شعروا بطعم تلك اللحظات، حقاً جميعنا سألنا أنفسنا يوماً ما.. متى ستمضي هذه السنة ونتخرج؟.. وأخيراً اقترب حليم من تنفيذ ما كان يتمناه، أيضاً لم ينسَ ذلك الوعد الذي قطعه على نفسه.. وهو أنه مستعد أن يخالف القانون.. في سبيل انقاذ حياة أي شخص، فلا شئ يعلو فوق قانون الانسانية.. ولا شيء أغلى من النفس البشرية..

ولكن الخبر السئ أن صديقهما زياداً قد تخرج من الجامعة.. إنه المحزن المفرح.. بينما الجميع سعيد بتخرج زياد.. الا أن ذلك أحزن حليماً و كريماً قليلاً.. ربما حان الوقت لتتفكك مجموعتهم.. إنها سنة الحياة!

كانت أسعد لحظات حليم.. عندما علم أنه سيتدرب مع كريم في تلك المستشفى، لقد تم قبوله في قسم التقنيات والبرمجيات "الأي تي".. أما صديقه كريم فقد تم قبوله في قسم الصيدلية الداخلية لنفس

المستشفى، ولكن كانت هناك مادة صغيرة.. يجب على كريم اجتيازها هذا الفصل.. وإلا تأخرا سنة كاملة أخرى.

وعند بداية التسجيل.. التقى حليم و كريم وجلسا في الاستراحة الخاصة بالجامعة.. سأله كريم وهو خائف:

- صديقي هل سأعيد تلك السنة من جديد أم ماذا؟! لا أريد أن أبقى هنا سنة كاملة من أجل تلك المادة السخيفة.

فكر حليم قليلاً وأجابه:

- حسناً، أظن أنني وجدت الحل..

قاطعه كريم مسرعاً:

- أن أذهب الى العميد وأخبره صحيح؟ بالتأكيد سيتفهم موقفي ويقوم بتسجيل المادة لي.

رد حليم مستنكراً:

- بالتأكيد لا، ألا تعلم المثل الذي يقول (تتغدى بهم قبل أن يتعشوا بك)؟

يسأله كريم من جديد متعجباً:

- ما معنى ذلك يا حليم، لم أفهم شيئاً!.. كيف سنتغدى بهم؟!

فيجيبه حليم بثقه:

- ألا تعلم أن العميد إن علم بذلك الأمر ورفضه، سيقوم بالتشديد عليه.. ولن يدع لنا مجالاً أن نتصرف، ولكن إن قمنا بتنفيذ تلك الخطة دون أن يشعر، سنضعهم جميعاً أمام الامر الواقع.. ستقوم بتسجيل تلك المادة مع تدريب المستشفى، وتدفع جميع المصاريف وتتسلم الايصالات.. بينما أنا سأقوم باستشارة صديقنا القديم سالم.. فأهل القانون لديهم الحل دائماً!

رد كريم بخوف:

- ولكن يا حليم، إن اكتشفوا أمرنا ستكون العواقب وخيمة.

نظر حليم الى كريم بابتسامة قائلاً:

- هل تعلم قاعدة الأعراض الجانبية "الساید إفكتس" التي تدرسها عن الأدوية؟.. لقد أخبرني عنها زياد قبل تخرجه..

أجاب كريم متحمساً:

- بالطبع.. فكل شيء له فوائد وأضرار، ولكن عندما تكون الفائدة أكبر من الضرر، علينا أن نتناول ذلك الدواء..

قاطعه حليم مكملاً كلام كريم:

- حتى نشفى ونستمتع بحياتنا، وإن لم نستعمل ذلك الدواء، سيكون الضرر أكبر وتصبح العواقب وخيمة!

أومأ كريم رأسه موافقاً رأي حليم وهو يقول:

- أجل لقد فهمت الآن، سنخسر علاقاتنا مع جميع الدكاترة، ولكن في المقابل سأضمن تخرجي هذه السنة.

- أحسنت يا صديقي.. هذه هي الخطة.

بعد ذلك ذهب حليم و كريم الى مبنى التسجيل، وقام كريم بتسجيل تلك المادة التي كانت ستعرقل طريقه..

مرت الأسابيع.. وحضر الجميع "الأسبوع الترحيبي" في المستشفى.. إنه تقليد متبع في المستشفى أن أي موظف أو متدرب جديد.. لابد من حضوره "الأسبوع الترحيبي".. وهي عبارة عن محاضرات تعريفيه بقوانين المستشفى.. وبأماكن الأقسام والموظفين والاداريين.. لقد كان زياد من ضمن الحاضرين أيضاً.. فقد تم قبوله كطبيب جديد في المستشفى.. انها لحظات رائعة أن يلتقي الأصدقاء مجدداً خارج أسوار الجامعة..

بعد أن انتهى الأسبوع الترحيبي.. ها قد بدأ اليوم الأول في تدريب المستشفى.. يوم جديد وغريب يتعطر برائحة الغموض.. دخل كريم

برفقة زميله "منذر" الى الصيدلية الخاصة بالمستشفى، يغلب على جميع الصيادلة بالداخل البشرة السوداء، وما إن دخلا الى قاعة الاجتماعات، حتى وجدا جميع زملائهما حاضرين..

يمضي الوقت ببطء.. ومرت الساعات بصعوبة.. ولا أحد يعلم أي شيء.. من سيحضر ومن المسؤول وماذا سيحدث؟.. حتى دخل شابان أسمران.. أحدهما طويل والأخر متوسط القامة.. الاثنان يمتازان ببشرتهما السمراء أيضاً..

بدأ الشاب الطويل بالكلام جالساً على كرسيه بعجرفة، شابكاً أصابع يديه.. ناظراً للأعلى بغرور وهو يقول:

- هاا .. أنتم إذن شباب الجامعة الخاصة بالمدينة، لو تعلمون كيف وافقنا على تدريبكم هنا بصعوبة، نحن بشكل عام لا نقبل الجامعات الخاصة، فقط نقبل طلاب الجامعة الحكومية فقط!

رد حليم مبتسماً متملقاً:

- سيدي المشرف، أولاً لا فرق بين طلاب الجامعات الحكومية أو الخاصة.. ثانياً تلك الجامعة الخاصة التي تتحدث عنها، هي واحدة من أملاك العائلة الحاكمة في الدولة.. إن أردت رفض تدريبنا يمكننا اخبارهم في الجامعة.

أمسك ذلك الشخص بربطة العنق الخاصة به.. وبدأ بتعديل جلسته باحترام مبتلعاً ريقه بصعوبه وهو يهمهم:

- احم .. حسناً.. ماذا كنا نقول ..أنا لم أقصد شيئاً أبداً، في البداية اسمي الدكتور طاهر، وأنا المسؤول عن قسم الأمان والتعقيم والتطوير في الصيدلية، كما أنني مساعد المدير هنا.

وأشار بيده الى زميله الآخر قائلاً:

- والآن سأترككم مع الدكتور جاسر، المشرف والمسؤول عنكم في التدريب، حيث سيشرح لكم اليوم.. مقدمة سريعة عن مرض السكري..

ربما هي صدفة أن تكون أغلبية من بالخارج من ذوي البشرة السمراء، ولكن ما ليس صدفة أن من ضمن الحاضرين.. ثلاثة شباب سمر وفتاة سمراء، قد تم توظيفهما جديداً في الصيدلية، أما المساعدون والعمال فكانوا ذوي بشرة بيضاء.. حتى لا يلاحظ أحد ذلك التمييز الواضح في الداخل!

الجميع سُمر بالداخل ماعدا أبناء الوطن.. كأنها شرط من الشروط في طلب التوظيف!

يبدو أن شبح التمييز سيظل يطاردنا للأبد!

بعد أن انتهت تلك المحاضرة أيضاً، بدأ الجميع يتوزعون في أماكنهم الجديدة للتدريب، يدخل الدكتور طاهر حاملاً بيده علبة "الكولا"، فاتحاً الغطاء محاولاً التقاط شئ ما عالق بين أسنانه الناصعة البياض، بعد لحظات قام برمي ذلك الغطاء في الهواء.. ليستقر بين أحد الرفوف هناك بالأعلى.. ثم تابع بعد ذلك سيره الى مكتبه في الداخل.. نظر منذر الى كريم متعجباً وهو يقول:

- هل هذا الدكتور طاهر، الذي من المفترض أنه المسؤول عن قسم الأمان والتعقيم في الصيدلية؟

رد منذر ساخراً:

- يبدو أنهم يختارون الموظفين هنا.. على حسب ألوان بشرتهم يا صديقي!

ضحك كريم قائلاً:

- أجل لقد لاحظت ذلك أيضاً، هل ترى زميلتنا السمراء في دفعتنا كيف يعاملونها؟.. إنها الآن قد ضمنت الدرجة الكاملة في التدريب.. أنت أيضاً سيعاملونك تلك المعاملة بلطف.. ربما يجب عليّ أن أصبغ بشرتي بالسواد.. حتى أضمن درجة متميزة مثلكم.

ضحك منذر أيضاً ثم يقول بحماس:

- لا تكن مبالغاً يا كريم.. انه اليوم الأول لنا هنا.. ربما تكون تلك مجرد صدفة!

ابتسم كريم قليلاً ثم قال:

- ربما.. هيا لنبدأ تدريبنا قبل أن يوبخنا أحدهم..

مرت الأسابيع سريعاً.. وفي أحد الأيام.. وصلت رسالة الى هاتف كريم: "يوجد إنذار أول بسبب عدم حضور ١٠٪ من المحاضرات، يرجى مراجعة الادارة"..

تعجب كريم من تلك الرسالة الغريبة.. يبدو أن الحرب قد بدأت بالفعل.. في استراحة الظهيرة، ذهب كريم سريعاً الى زياد يخبره بما حدث.. فاتصل زياد سريعاً بصديقه حليم.. طالباً منه الذهاب مع كريم للجامعة.. توجه كريم بعد ذلك الى مكتب الدكتور طاهر..

بدأ كريم بالتحدث:

- دكتور طاهر.. أستسمحك أن أغادر الى الجامعة.. فقد طلبوني في الادراة هناك، ولا أعلم السبب.

تظاهر الدكتور طارق بالانشغال بالحاسوب المحمول "اللابتوب"، وعيناه مركزتان على تلك الشاشة قائلاً:

- لا أعلم.. ولا أحب تلك المواضيع يا شباب، ولا أسمح بها هنا.. حسناً.. ربما أسمح لك هذه المرة، ولكن لن تسمع أذني ذلك الطلب مجدداً.. هل سمعتني؟ هيا تفضل..

قبيل مغادرة حليم و كريم من باب الصيدلية.. لمحَ تلك الصيدلانية من المواطنين.. تدخل الى الصيدلية ولا تبالي.. وما إن جلست في مكانها.. حتى وجدت الدكتور جاسر واقفاً بجانبها.. فمازحها الدكتور جاسر:

- هل انتهيتِ من صلاة التراويح.. أقصد صلاة الظهر يا دكتورة؟

ثم يبدأ بالضحك خجلاً..

فضحكت الدكتورة هي أيضاً ولكن بسخرية وهي تقول:

- آسفة فقد كانت ليلة القدر!

ملأت تلك الضحكات الكاذبة أرجاء المكان..

رد الدكتور جاسر بنبرات.. لا تُعرف أهي حقاً ساخرة أم جادة:

- ولمَ الاعتذار يا دكتورة!.. أنتِ هنا من مواطني الدولة.. لكِ كل الحريات بالتأكيد ولا يستطيع أحد إرغامكِ على أي شيء!

ربما كان ذلك الحوار جريئاً في عنصريته بدرجة الامتياز.. كما أنه حصل على مرتبة الشرف في النفاق..

ربما هذا هو السبب الأول.. الذي جعل تلك الفئة الغير مواطنة.. يحافظون على مناصبهم الادارية في ذلك المكان.. الذي يكسوه نسيج التمييز والعنصرية.. بخيوطٍ من أجود أنواع النفاق..!

هناك مثل معروف في هذه البلاد يقول "من لم يعرف الصقر.. يشويه".. هؤلاء الأشخاص طبقوا ذلك المثل حرفياً.. لذلك هم يستحقون أن يبقوا في تلك المناصب منذ ثلاثين عاماً، حتى في وجود هؤلاء المواطنين بينهم.. ربما تنازل المواطنون عن تلك المسئوليه.. فما أجمل أن تصلي التراويح كل يوم.. وتأتي لتناول كوب القهوة في الصيدلية.. ثم بعد ذلك تذهب الى البنك.. فتجد راتبك الذي يعادل خمسة أضعاف راتب ذلك المدير ونائبه..

إنها حياة اللاحياة.. فما قيمة تلك الأموال، إن لم تبذل جهداً في الحصول عليها.. ما قيمة أن تعمل على حساب أكتاف الآخرين.. وأنت

لا تستحق ذلك المقابل المادي.. إنها بلا شك البطالة المقنعة.. بل إنها العنصرية المقنعة!

بل هي حياة اللاحياء.. فمن يعش حياته على أكتاف الغير، ويتلاعب بالألفاظ مقحماً الدين في مزاحه.. بهدف تبرير تلك الغلطه العادية!، فهو حقاً انسان متجرد من ملابس الحياء.

أما من يركب الأمواج العالية الخطرة.. يتلاعب ويتراقص فوقها يميناً ويساراً.. فهو حقاً يستحق ذلك اللقب بامتياز.. المدير العام.

ما أجمل ذلك العرض السيركي الرهيب.. فما أجمل أن ترى ذلك الشخص.. يتلاعب داخل القفص بين الأسود والنمور.. وذلك المهرج الآخر الذي يلعب بالنار.. تارةً يخرج النار من فمه.. وتارة أخرى يقفز داخل الحلقات النارية، دون أن تمس النار جلده أويحترق.. إنه يستحق أن يكون رجل السيرك الأول..

ربما أيضاً ليس ذنبه أنه محاطٌ بتلك الأسود والنيران.. فهو يفعل ذلك من أجل اطعام عائلته..

وربما كان ذلك ذنب المتفرجين.. الذين يصفقون بحرارة كل مرة!

فرغم تكرار ذلك العرض كل يوم، ولكن.. لا أحد يمل أبداً.. ببساطه لأنه لا أحد يجيد فعل تلك الخدع البهلوانية الساحرة!

مرت الساعات.. حتى وصل حليم و كريم الى الجامعة.. وما هي دقائق حتى وصلا الى مكتب عميد كلية الصيدلة.. فسأله كريم بلطف قائلاً:

- صباح الخير سيدي.. آسف على الازعاج والقدوم دون موعد.. لكن.. جاءتني رسالة وأنا بالمستشفى.. أن هناك انذاراً أول لي، بسبب عدم الحضور!

ابتسم العميد وهو يقول:

- أجل صحيح! .. وأنا من كتبت ذلك الانذار بنفسي، بل وقمت بالتوقيع عليه أيضاً!

رد حليم محاولاً تبريد تلك النار التي تشع من عيني العميد:

- أرجو ألّا تسيء فهم صديقي كريم.. أنه يقر بخطئه الكامل.. وقد جاء الى مكتبك مستسمحاً.. وطالباً ايجاد حل لتلك المشكلة؟

أجابه العميد بغرور:

- الحل أن يصحح خطأه.. وأن يذهب الى دكتور تلك المادة ويعتذر له.. الموضوع في النهاية أصبح في يده.. ولا شأن لي بذلك الموضوع.

من لا يعرف دكتور تلك المادة.. فهو ذلك الدكتور الشاب الجديد.. صاحب تلك المادة البسيطه.. ذو الجواز الأوروبي.. ذو الأصول والملامح العربية.. وذلك الاسم العربي.. تذكر كريم عندما سأله في يوم من الأيام:

- ما هي أصولك يا دكتور مصلح؟

لكن هروب الدكتور من الاجابة.. جعل من السهل تحليل شخصيته.. لابد أنه شخص يكره تاريخه العربي، وربما ذلك القناع الذي اكتسبه من جديد.. جعل من الغرور أسلوباً جديداً في تعامله مع الآخرين.. إنه الآن متواجد في مكتبه.. أمسك كريم بصديقه حليم وسأله:

- لمَ لا نذهب لتنفيذ الخطة التي أخبرتني عنها يا حليم.. لا فائدة مما نفعله الآن.. أنا أعرفهم أكثر منك صدقني.. لن يستمع الينا أحد.. بل سيحاولون جعلنا عبرة لأي شخص يفكر بما فعلناه.

ابتسم حليم قائلاً:

- هل تعرف قاعدة "دكتور التخدير"؟ .. هل أخبرتك عنها سابقاً؟

فكر كريم قليلاً ثم رد قائلاً:

- أذكر أنني سمعت عن تلك القاعدة سابقاً من زياد.. ولكن دعني أتذكرها..

قاطعه حليم سريعاً:

- ليس لدينا وقت.. فعندما يموت المريض في غرفة العمليات.. تكون الاجابة المعروفة لأهله.. أنه قد مات بجرعه زائدة من المخدر.. لأنهم إذا علموا أنه قد مات من العمليه..

قاطعه كريم مكملاً:

- سيقومون بالاعتداء على ذلك الطبيب وربما قتله.. أما طبيب التخدير، فقد غادر المستشفى بعد انتهاء مهمته.. فلا أحد سيتضرر في النهاية.

ثم تابع كريم متعجباً:

- هل تقصد أن نجعلهم هم المخطئين بدلاً منا!

أجابه حليم بعيون لامعه:

- ها قد بدأت تفهم الخطة الحقيقية الآن.. هيا بنا الآن لنذهب اليه سوياً..

دخل كريم برفقة حليم الى مكتب الدكتور مصلح.. الذي بدا على عينيه الفرح مبتسماً بغرور.. إنها علامات النصر بعد الحرب.. لسانه

الصامت يقول "ها قد انتصرت عليك أخيراً.. وجعلتك تزحف الى مكتبي كالأسير.. طالباً العفو والسماح مني"..

بابتسامة ساخرة سألهم الدكتور مصلح:

- أين كنت يا رجل.. لقد اشتقت اليك كثيراً.. كل ذلك الوقت ولا تسأل عني؟.. (وبسخرية) اااه.. لقد نسيت، الآن أصبحت في ذلك المستشفى الضخم.. لم أعد في مقام حضرتك الآن.. تفضلا بالجلوس تفضلا.

جلس حليم و كريم.. وبدأ كريم بالكلام:

- حضرتك تعلم تماماً سبب عدم استطاعتي الحضور يا دكتور مصلح.. صحيح؟

تدخل حليم سريعاً مقاطعاً كريم:

- يا دكتور أرجو أن تقدر ظروفه.. وما فعله لم يكن بهدف التحدي.. ولكن بسبب ألّا يتأخر عاماً آخر كاملاً من أجل مادة بسيطة تقدر بساعة.. نحن نكن لكم كل الاحترام والتقدير.. وأنتم أساتذة ودكاترة وقدوة لنا.. لذا نرجوا أن تساعدونا.

بغرور كبير يمسك الدكتور مصلح القلم.. ويتلاعب بذلك القلم بين اصبعيه مكرراً تلك الجملة قائلاً:

- مادة بسيطة تقدر بساعة!.. ساعة.. حسناً.. صديقيّ العزيزين أود مساعدتكما بالطبع.. ولكن لا أستطيع مخالفة قانون الجامعة.. للأسف الموضوع أصبح خارجاً عن إرادتي.. وهو الآن بيد العميد!

رد كريم مستنكراً:

- ولكن العميد أخبرني أن الموضوع أصبح لديك، أما هو فلا علاقة له بذلك الأمر.

- الحل الوحيد أن تحضر.

في تلك اللحظات.. تذكر حليم ذلك الوعد الذي وعده.. وهو أنه مستعد لمخالفة أي قانون في تلك الحياة.. بهدف مساعدة أي شخص يحتاج الى المساعدة.. ولكن من المؤسف أن نجد تلك الشخصيات في حياتنا.. بل ويقومون بتدريسنا!

سأله كريم بخوف:

- وما النتيجة التي ستحدث إنْ لَمْ أستطع الحضور؟

أجابه الدكتور ببرود شديد:

- بالتأكيد درجة "الإف" والرسوب.. لدي حلّان أفضل لك من ذلك الحل..

سأله كريم سريعاً:

- وما هما؟

أخذ الدكتور مصعب نفساً عميقاً، ثم أجابه:

- الأول ألا تحضر تدريب المستشفى، وتأتي لحضور محاضراتي، أما الثاني أن تعيد تلك المادة التي تقدر بساعة.. وتعيد العام القادم إن شاء الله.. وليكن ذلك درساً لك في المستقبل.

سأله حليم بثقة:

- هل تريد أن نتعامل بالقانون يا دكتور مصلح؟

رد الدكتور مصلح بسخرية:

- لمَ! .. هل أنت مجنون!.. ماذا ستفعلان.. أنا من يضع القوانين هنا.

ليجيبه حليم ساخراً:

- حسناً.. سنذهب الى رئيس الجامعة، ونراجع معه تلك القوانين التي تضعها، ما رأيك!

ضحك الدكتور مصلح بشكل هستيري ثم قال:

- رئيس الجامعة! لقد اضحكتماني كثيراً، حسناً افعلا ما يحلو لكما، ولكن لا تتهورا مرة أخرى.

خرج كريم وحليم من مكتب الدكتور مصلح.. فوجدا مكتب الدكتور مالك مفتوحاً.. إنه المكان الأكثر راحة في الجامعة.. فما أكثر الأوقات التي قضاها كريم في هذا المكتب.. لدرجة أنه كان يترك بعض المحاضرات.. فقط ليجلس ويتحدث مع صديقه الدكتور مالك.. إنه موعد النصيحة الآن.. فليس من الأدب أن تبدأ بخطتك.. دون أن تخبر من كان يقف دائماً بجانبك ويساعدك.. دخل كريم وحليم الى مكتب الدكتور مالك..

استقبلهما الدكتور مالك.. كأنه ينتظر قدومهما بلهفة قائلاً:

- كريم يا كريم.. ما تلك الضجة التي فعلتها.. (ممازحاً) طبعا أعلم أن صديقك حليم هو صاحب تلك الأفكار الشيطانية.. وأقحمك ذلك الماكر في تلك المشكلة الكبرى.

رد حليم مبتسماً:

- لا أعلم يا دكتور لمَ يعاملون كريما هكذا.. الحمدلله أنني لست في الصيدلة.. ولكن لا تقلق يا دكتور.. لازلت مسيطراً على الوضع.

هز الدكتور رأسه مؤيداً كلامه وهو يقول:

- أعلم أنك المسيطر.. وأعلم أنك لن تصمت عن الخطأ مهما حدث.. وأعلم ما فعلته في كلية الهندسة بالضبط.. أكثر ما يعجبني فيكما هي شخصيتكما القوية.. لا تقلق يا كريم سأساعدك وأقف بجانبك.. ها هم بالخارج مجتمعين، وأعتقد أنهم سيأتون الينا الآن.. حاول فقط أن تحافظ على هدوئك وأعصابك.

دخل العميد وبيده الدكتور مصلح، ويرافقهما المعيد "راضي"..

نظر المعيد الى كريم بنظرات ملتهبة.. ودمه يغلي في عروقه.. محاولاً التحكم في أعصابه.. ثم سأل مندفعاً:

- ألم نسألكم أكثر من مرة.. أن تخبرونا عن تلك المواد قبل اختيارها؟

أجابه كريم بثقة:

- لم أرَ أي اعلان عن ذلك.. ولا أعلم عمّ تتحدث!

فنظر اليه المعيد "راضي" وبصوت خافت يقول:

- كريم.. ما تفعله الآن ليس جيداً.. ستعيد المادة العام المقبل.. لماذا لم تخبرنا؟ لقد حدث ما حدث وانتهى.. فقط نريد معرفة الحقيقة.

قاطعه العميد "فخري".. محاولاً إطفاء نار الحرب التي قد بدأ فتيلها بالاشتعال:

- هذه الحركة ليست جيدة.. وأنت تعلم ذلك.. والجميع من الأعوام السابقة دائماً يخبروننا بالمواد التي تنقصهم.. ما فعلته ليس جيداً اطلاقاً.. ويجب عليك الاعتذار، وارضاء الدكتور مصلح.. وأنا سأقوم باصلاح تلك المشكلة بطريقتي.

تدخل حليم متعجباً:

- ولمَ يسترضيه.. كريم لم يخطئ!

قاطعه العميد غاضباً بشدة وقد تغير لونه، وارتجفت أوصاله صارخاً:

- بل هو المخطئ وسيدفع الثمن..

فرد حليم وقد انفجر المستودع الخفيّ في نفسه.. وتصاعد لهيبه.. حتى بدأ الجميع يشعر بحرارة أنفاسه المشتعلة غضباً:

- اسمع يا دكتور فخري.. كريم ليس مخطئاً ولا أسمح لك باهانة صديقي.. فهو لم يقترف أي خطأ.. بل أنت والدكتور مصلح من تعارضون القوانين.. وإن كنت تسأل عن الأعوام السابقة.. فقد كنتم تسمحون لهم بذلك فقط لأنهم فتيات!!.. أما الشباب فلم تساعدوهم فقط لأنهم شباب!.. كريم لم يرَ أي اعلان سواء بلوحة الاعلانات.. أو حتى في موقع التسجيل الخاص بالجامعة.. وأعدكما أنه سيأخذ حقه منكما بالقانون.

خرج العميد من الغرفة محمر الوجه.. النار تشتعل في رأسه.. وخرج الدكتور مصعب وراضي غير مكترثين.. لقد كانت ملحمة قوية.. أن يقف حليم وكريم أمام مجموعة من الدكاترة.. ليس لمناقشة الماجستير أو الدكتوراة.. بل يقف مطالباً بحقه..

حاول الدكتور "مالك" تهدئة الوضع.. واطفاء تلك النار التي أحرقت المكان:

- انظر يا حليم.. ربما كان أسلوبك فظاً قليلاً مع العميد.. مع أنك لم تخطئ وقلت الحقيقة.. لكن سأحكي لكما حكاية سريعة.. كان لدي قديماً طالب يحضّر الماجستير.. كان طالباً في قمة الذكاء والدهاء.. كان عبقرياً بكل ما تعنيه الكلمة.. كان كثيراً ما يجادل ويصر على رأيه.. لم يستطع أن يجد وظيفة له في الجامعة.. الجميع كان يخاف من أن يعمل معهم ويكشفهم.. نصيحتي لك حاول أن تجاري الأمور.. حاول أن تمشي مع التيار وليس عكسه.. اذهب الآن يا كريم الى العميد.. وحاول أن تصلح الأمر معه.. وأنا وحليم سننتظرك هنا..

أجابه حليم مقتنعاً:

- حسناً يا دكتور.. سأفعل.

لَحِقَ كريم بالعميد محاولاً التحدث معه، حتى وجد العميد ممسكاً بالمفاتيح مغلقاً مكتبه.. ويعتذر الى كريم بحجة انشغاله باجتماع.. لم يتقبل كريم ذلك السبب، وبدأ الغضب يسيطر على ملامح وجهة.. ليعود مرة أخرى الى مكتب الدكتور مالك..

طلب منه الدكتور مالك الجلوس قائلاً:

- لا تقل شيئاً.. فملامح وجهك تختصر كل ما حدث، فقط اجلس وخذ نفساً عميقاً.. وأخرجه ببطء.

رد كريم وهو يفكر:

- لا أعلم لمَ يفعلان ذلك!.. لن أعتذر اليهما وسآخذ حقي بالقانون.

أجابه الدكتور مالك محاولاً تهدئته:

- حسناً دعني أخبرك أن موقفك صحيح تماماً.. والقانون في صالحك.. لا ينبغي أن أخبرك بذلك بالطبع، ولكن أنت تعلم معزّتك لديّ يا كريم.. فقط اليوم وأنت في المنزل.. حاول تجميع أفكارك بشكل مرتب.. حتى تكون شكواك في الغد مختصرة وواضحة.

ثم استدار يميناً، وأخذ نفساً عميقاً وقال باستياء:

- هل تعرفان قصة قائد الكتيبة الخائنة؟

نظرا اليه متعجبين وهما يفكران ، وقال حليم:

- أي قصة بالضبط.. فما أكثر الخونة في عالمنا!

ابتسم الدكتور مالك ثم تابع:

- تلك القصة حدثت في "حرب ٤٨" المشهورة.. عندما شاركت فيها الكثير من الجيوش العربية ضد الغزو الصهيوني، كان من ضمن المشاركين كتيبة محاصرة.. ويترأسها ضابط كبير في إحدى الجيوش العربية.. تظاهر ذلك الضابط اصابته برصاصة في جسده.. وتم قبول طلبه بالعوده الى بلاده لتلقى العلاج.. وعندما عاد اكتشفت القيادات كذبه وجُبنه.. ولكن قرروا عدم معاقبته، والسبب ببساطه.. أنه اذا تم معاقبة هذا الضابط الكبير.. سيهتز كيان الجيش وستعم الفوضى.

ابتسم الدكتور مالك ساخراً ثم أكمل:

- بعد سنوات أصبح ذلك الضابط قائداً كبيراً في ذلك الجيش!

ثم نظر الدكتور بعيون حائرة قائلاً:

- إن المنظمات الهامة قد تعرف الحق، وتتجاهله أحياناً إذا كان هذا الحق سيسبب اهتزازاً في الثقة بهم، وتضحي بصاحب الحق، وقد تكافئ المخطئ أحياناً، لتثبت طهارتها أمام الناس.. ربما كانت تلك حالات

استثنائية.. المهم أن تفعلا الصواب.. وأنت يا كريم تمسك بحقك حتى النهاية، وثق دائماً أنَّ الله معنا في كل خطوة وتذكر تلك العبارة.. "ما ضاع حق وراءه مطالب".

في اليوم التالي.. ذهب حليم وسالم برفقة كريم الى رئيس الجامعة.. حاولت السكرتيرة منعهم مراراً.. لكنها في النهاية استسلمت أمام إصرارهم.. وربما خوفاً من رجل القانون سالم!

أحدهم أتى مهرولاً من بعيد وهو يقول:

- انتظروا لحظة.

سأله سالم متعجباً:

- من أنت؟

رد الرجل محاولاً التقاط أنفاسه بصعوبة:

- أنا هنا من الطاقم الاداريّ في الجامعة.. أخبروني ما مشكلتكم واعتبروها قد حُلت.. ولكن لا نريد تصعيد تلك الأمور البسيطة.. بأن تصل الى رئيس الجامعة.

مرت الدقائق وكريم وحليم يحكيان له ما حدث..

رد ذلك الاداري سريعاً:

- حسناً.. اذهب الى العميد يا كريم.. وأنا سأتحدث اليه الآن.

رد سالم بثقة:

- لن يذهب أحد الى هناك، إن كنت تريد مساعدتنا حقاً.. أحضر لنا ورقة باستثناء موعد المحاضرة لكريم.

أجابه الاداري متخاذلاً بصوت منخفض:

- لا أستطيع.

ليبتسم سالم قائلاً:

- إذن أرجو أن تتنحى جانباً.. حتى أستطيع احضار ذلك الاستثناء بنفسي.

دخل الجميع الى مكتب الرئيس.. و بدأت السكرتيرة بضيافتهم وتقديم القهوة لهم.. ثم بدأ رئيس الجامعة بسؤالهم عن أحوال الجامعة.. وبدأ حليم وكريم بسرد جميع ما حدث لهما..

مرت الدقائق.. ورفع الرئيس سماعة الهاتف:

- صباح الخير.. دكتور فخري معي؟ .. حسناً هل جاء اليك كريم بالأمس طالباً منك استثناءً لتغيير موعد المحاضرة؟ .. وهل الدكتور مصلح أخبره أن الحل هو أن يعيد المادة السنة القادمة!، وأنه هو من يضع القوانين هنا في الجامعة!.. وعندما ذهب اليك مرة أخرى.. أغلقت باب المكتب بحجة ذلك الاجتماع..

صمت الرئيس قليلاً منصتاً ثم تابع:

- حسناً أرجو أن تحضر الى مكتبي أنت والدكتور مصلح في الغد.. أما الأمر الآخر.. سيذهب كريم الآن الى الدكتور مصلح.. وسيختار أي موعد يريده ويتناسب مع وقته، حتى و لو كان في الليل.. شكراً لك يا دكتور فخري.. لا تنسَ اجتماع الغد.

عمت الفرحة وجوه الجميع.. ولم يستطع كريم اخفاء فرحته وهو يشكر رئيس الجامعة:

- لا أعلم كيف أشكرك يا دكتور.. مهما قلت لك من المدح لن أوفيك حقك.

ضحك الرئيس قليلاً ثم قال:

- أبنائي أيضاً يدرسون بالجامعة.. وأعلم تماماً ما يعانيه الشباب في الجامعة.. لابد أن تُوجد المشاكل في كل مكان.. ولكن ما يضايقني حقاً..

أنه بدلاً من حل تلك المشاكل الصغيرة.. يقوم البعض بتصعيبها أكثر، متحدياً طلابه لارضاء غروره.. هنا تكمن المصيبة الكبرى.. وما حدث لن أسمح به أبداً.. ولن أسمح بتكراره مرة أخرى.. وأعتذر لكم عن أي أضرار تسببت لكم.. يمكنكم الآن الذهاب لتدريبكم ومحاضراتكم، حتى لا تواجهوا المزيد من المشاكل .. وفقكم الله يا أبنائي.

ثم التفت الى كريم قائلاً:

- لا تنسَ يا كريم أن تذهب للدكتور مصلح.. وإن حدثت أي مشكلة.. فمكتبي مفتوح لك وللجميع في أي وقت.

ما أجمل ألا يخذلك القدر ويقف بجانبك في اللحظة الأخيرة.. ربما يطغى الظلم ويصل الى ذروته.. ولكن لابد من وقت مناسب يسود فيه العدل من جديد.. فذلك الشتاء ذو الليالي الطويلة التي يسودها الظلام.. وتلك الصواعق التي هزت بزئيرها الأرجاء.. وهذه الزوابع التي تلتهم الأشجار الشامخة.. وتكسر ظهورها وتنثرها في الطرقات.. ولكن في النهاية.. ستهبط حبيبات الأمل من السماء.. لتسقي الأرض بنقائها من جديد.. وتشرق بعد ذلك شمس الصباح..

٧

الوَجهُ الآخَرِ لِلجَلِيد

لم يهنأ زياد وأسرته بعطلة نهاية الأسبوع.. لم تستطع السماء تحمل ما قد يحدث.. فلم تستطع اخفاء دموعها النقية.. لربما كانت السماء أكثر احساساً ورحمة.. لا تتعجب عندما تقرأ القرآن الكريم.. أنّ السماء قد رفضت حمل تلك الأمانة.. وفي المقابل يقبل الانسان بحملها.. ويصفه القرآن بالظلم قبل الجهل.. أجل ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ -صدق الله العظيم-.

يرن الهاتف الخاص بزياد، إنه ضابط من مركز الجوازات.. يطلب منه القدوم يوم الأحد.. وأن يحضر جواز سفره معه، لقد أصبح البيت بأكمله مكهرباً.. الصمت يعم المكان جاهلين ما يحدث.. ربما كان ذلك المتصل مخطئاً.. ربما كان يمزح..

مرت الدقائق حتى سألت الأم من جديد:

- هل حدثت مشكلة بينك وبين أي أحد في تلك المستشفى.. أو ربما وأنت تقود السيارة في الطريق.. أو أي شئ آخر؟

ليجيب زياد متحيراً:

- أنتِ تعلمين جيداً يا أمي أن الجميع يحبني، ولا يوجد لي خلافات مع أي أحد!

فجأة تنظر الأم غاضبة الى كريم وتسأله:

- هل ما حدث الآن له علاقة بجارنا الذي يحاربنا باستمرار؟

فيجيب زياد مستنكراً:

- لا أعلم يا أمي، ولكن لا اعتقد ذلك.

يبدأ الأخ الأصغر لكريم بالتلعثم بالكلام:

- أأأ.. أريد .. لا أعرف .. أريد أن أخبركما بشيء..

نظرت اليه الأم سريعاً:

- ماذا بك يا "عمّار" .. أسرع وأخبرنا ماذا هناك؟

فيرد عمّار حزيناً:

- منذ يومين وأنا أتجول في المدينة مع أصدقائي بسيارة زياد، كنا نتحدث ونخطط للمكان الذي سنتعشى فيه، وبينما كنت أقود.. لاحظت الاشارة الضوئية مصفرة.. فما كان مني الا أن أسرعت.. حتى لا نتوقف وننتظر.

فتنظر اليه الأم غاضبةً وهي تصرخ:

- لماذا يا عمّار لماذا؟! هل هذه الدقائق التي كنت ستتوقف فيها.. كانت ستغير من حياتك، وبالتأكيد أنك عبرت الاشارة وهي حمراء.. والتقطتك بعد ذلك كاميرات المراقبة.. وسجلت رقم سيارة أخيك.

واغرورقت عينا عمّار بالدموع قائلاً:

- أقسم لكِ يا أمي أنني عبرتها وهي صفراء، ولكني كنت مسرعاً جداً..

ثم صمت قليلاً وتابع:

- سأذهب معك يا أخي وسأواجههم.. فأنت لا ذنب لك، كما أنني سأخبرهم أنني كنت متعجلاً، لأحضر جنازة صديقي، لكني لن أتركك تذهب وحدك يا أخي.. وهذا قراري النهائي.

ذهب زياد الى أخيه وهو ممسك برأسه، ثم يحتضنه ويمسك بكتفه وهو يقول:

- أيها الغبي الصغير، هل تظن أنني سأسمح لك بأن تفسد ما فعله والدنا -رحمه الله-، ووالدتك التي تعبت في تربيتنا وحدها طوال هذه السنوات.. ألا ترى نفسك الآن، ستنتهي من الثانوية العامة الفصل القادم، هل نسيت أنك من العشرة الأوائل على الدولة!

- لا لم أنسَ ذلك يا أخي ولكن..

- من دون ولكن.. سيتم قبولك في أي جامعة تريدها بمنحة كاملة، ألا تريد أن تصبح طبيباً مثلي يا أخي؟!

- بالتأكيد أريد ذلك يا زياد ولكن..

- من دون ولكن.. سأذهب وحدي وقد انتهى الكلام.

نظرت لهما الأم وهي تبكي ثم قالت:

- ليت والدكما مازال حياً بيننا الآن.. ما كنت لأحمل ذلك الهم وحدي.. سآتي معك يا زياد، فأنا الآن قد أكل الشيب شعري.. وكما ترى أنا المسؤولة عنكما بعد موت أبيكما، وبالتأكيد سيرأفون بحالتي عندما يروني هكذا.. أما أنت مهما فعلت.. ستظل في نظرهم ذلك الشاب الطائش المتهور.. ولن يرحموك في المحكمة، هل فهمت؟

لم يرحم شبح الكوابيس زياداً.. ظلَّ زياد ممسكاً برقبته طوال الليل.. يتقلب يميناً ويساراً، لا يستطيع التنفس من تلك الكوابيس، ذكريات تليها ذكريات.. حتى استيقظ من نومه قلقاً.. لا يعلم ما يحدث.. مستنشقاً انفاسه بصعوبه..

أمسك زياد بكوب الماء يشربه.. وبدأ بتذكر صديقه سالم.. ذلك الشاب الذي كان يدرس في كلية القانون.. أجل ربما حان الوقت كي يطلب مساعدته.

في صباح الجمعة.. أمسك زياد بهاتفه كي يتصل بصديقه سالم، ليطمئن عنه ويسأل عن أحواله، ثم يحدد معه موعداً لمقابلته بعد صلاة الجمعة..

بعد أن انتهت صلاة الجمعة، توقف زياد بسيارته.. وحليم بجانبه في السيارة، ثم نزل زياد من السيارة وصافح سالماً..

أمسك زياد بيد سالم يجره اليه:

- أريد أن أتحدث معك في أمر طارئ يا سالم.. ولكن لا يمكننا التحدث هنا، تعال معي نتحدث داخل سيارتي.

ركب سالم معه السيارة متسائلاً:

- ماذا بك يا زياد؟ نبرات صوتك لا تبشر بخير! هل هناك شئ؟ أخبرني فأنت أخي؟!

يجيبه زياد حزيناً:

- للأسف يا سالم.. هناك أخبار لا تسر.. لقد اتصل بي ضابط من الجوازات ليلة أمس.. طالباً مني القدوم يوم الأحد الى المركز.. هل من الممكن أن تكون دعابة من أحدهم؟

فيكرر سالم كلامه متعجباً:

- دعابة!.. لا أعتقد ذلك.. ما اسم ذلك الضابط؟ وماذا يريد منك؟

ليرد زياد يائساً:

- لا أعلم شيئاً عنه يا سالم، هل تعرف أحداً يستطيع مساعدتي؟ لقد تجاوز أخي الصغير اشارة المرور وهي حمراء.. لم يكن يقصد، هذا كل ما في الموضوع.

ابتسم سالم واضعاً يده فوق كتف زياد وهو يقول:

- لا تقلق يا زياد، لن أتركك في هذه المشكلة حتى نجد حلاً.. من حسن الحظ أن ابن عمي يعمل في مركز الشرطة أيضاً.. ولكن في مدينة أخرى.. لا بأس سيساعدنا قليلاً.. على الأقل سنعلم ما سبب ذلك الاستدعاء.. قابلني الساعة الثامنة بعد العشاء.. سنذهب جميعاً اليه سوياً برفقتي.

أمسك حليم بيد سالم وهو يقول:

- أنت حقاً صديقٌ وفيٌ يا سالم.. سوف ننتظرك إذاً الساعة الثامنة.

بعد أن عاد زياد الى المنزل، والغموض يملأ المكان، الجميع يفكر.. حتى أنه لم يلاحظ أحد دخول زياد، مرت الساعات حتى جاء الموعد

المنتظر، وذهب حليم وكريم مع زياد لملاقاة صديقه سالم من جديد، وعندما وصلا، طلب منه سالم ركوب السيارة..

ركب سالم السيارة ثم أخبره حزيناً:

- لقد أرسلت بياناتك الى ابن عمي.. وأخبرني بكل شيءٍ يا زياد.

سأله حليم والقلق يخرج من عينيه:

- ماذا هناك يا سالم؟.. أرجوك تكلم، نريد أن نعرف كل شيء، مهما كان ذلك الخبر.

تابع سالم حديثه متخاذلاً:

- للأسف يا حليم.. زياد مطلوب للتحقيق.. وعندما راجع ابن عمي الطلب الالكتروني.. وجد أن السبب هو أمور أمنية وخاصة.

نظر حليم الى زياد مصدوماً ويقول:

- أمور أمنية!!.. كيف ذلك؟ هل عبور إشارة المرور الحمراء أصبح أمراً أمنيا!.. زياد اتصل بأخيك وتأكد منه.. لابد أن الأمر لم يكن مجرد قطع اشارة المرور.

أصابت الصدمة زياداً ولم يعد يقوى على الكلام! فأمسك سالم بيد زياد قائلاً:

- لا داعي لذلك يا زياد.. أخوك ليس له علاقة بشيء!.. لقد عبر تلك الاشارة وهي صفراء.. لقد راجع ابن عمي كاميرات المرور مع أصدقائه هناك.

نظر اليه كريم متعجباً ثم قال:

- كيف راجع الكاميرات واليوم عطلة؟!

أجابه سالم:

- في العطلة يغلقون أمام الجمهور.. ولكن في الداخل هناك فريق يعمل.

رد كريم سريعاً بقلق:

- إذن ما هو الموضوع يا سالم.. تكلم أرجوك.

أجابه سالم متخاذلاً من جديد:

- لقد أخبرت ابن عمي أن يتولى الموضوع.. وأن يحاول أن يجد حلاً لهذه المسأله.. لابد أن لديه الكثير من الأصدقاء هناك.. فقط لا تشغل بالك وتفكيرك.. أما أنتم يا أصدقاء حاولوا أن تخففوا من حدة التوتر عند زياد.

وضع حليم يده فوق كتف حليم قالاً:

- سآتي معك يا صديقي..

ويضع كريم يده على الكتف الأخرى لزياد ويقول:

- أنا أيضاً سآتي..

قاطعهم سالم:

- للأسف لا أنصحكما بذاك حتى لا يزداد الوضع سوءاً.. سيذهب زياد وحيداً أو برفقة أحد من أهله، وعندما يعود سنجتمع من جديد ونرى ما الذي حدث.

صباح يوم الأحد.. استيقظ زياد باكراً متوتراً.. لا يعلم ماذا سيفعل.. إنها أول مرة له أن يُطلب للتحقيق.. دخل غرفة والدته ليجدها نائمة، فأمسك بيدها وهو يقبلها.. ثم غادر المنزل وحيداً، ليذهب بسيارته دون أن يعلم أحد.

وبعد أن وصل.. تَرجَل من السيارة.. ذاهباً الى داخل المركز، وعندما دخل الى مركز الشرطة.. ذهب الى مكتب الاستقبال، فاستقبله موظف الاستقبال هناك.. المقاعد ممتلئة بالناس الذين يغلب عليهم السكون والخوف.

سأله موظف الاستقبال عن سبب قدومه، فأجابه زياد.. أنه مطلوب للتحقيق معه، فبدأ الموظف يتصل بالداخل ويستعلم أكثر.. حتى فهم الموضوع، وقام بتوجيه زياد الى المكان قائلاً:

- اسلك هذا المسار حتى النهاية، ثم انعطف الى اليسار، ستجد باباً زجاجياً مغلقاً، قم بقرع الباب الزجاجي، حتى يفتح لك أحدهم من الداخل.

قام زياد بتنفيذ ما قاله موظف الاستقبال، وذهب حتى نهاية المسار.. ثم التف يساراً.. ليقف أمام ذلك الباب الزجاجي، حتى جاء شخص يرتدي ملابس مدنية فسأله:

- من أنت؟.. ومن سمح لك بأن تأتي الى هنا؟ ألا تعلم أين تقف؟

فأجابه زياد بخوف:

- تلقيت مكالمة ليلة الجمعة من المركز، وأخبرني الضابط بأنني مطلوب هنا..

فوراً فهم ذلك الشخص وقال له:

- حسناً تفضل معي

وأغلق ذلك الباب.. الذي يعزل المكان الداخلي تماماً عن العالم الخرجي، فلا الخارج مسموع.. ولا الداخل مسموع، ثم أدخله الى غرفة من الغرف.. وقال له:

- انتظر هنا قليلاً..

انتظر زياد كثيراً.. حتى أتي شخص ضخم تملأ وجهه علامات الغضب، يتكلم بالهاتف حتى أنهى مكالمته.. جلس ووضع والقى هاتفه فوق مكتبه بغضب، ثم نظر الى كريم يسأله:

- ما هو اسمك؟ وأين جواز سفرك؟

أجابه زياد بخوف:

- أنا "زياد عبدالله"، تفضل ها هو جواز سفري.

فيرد الضابط بكل هدوء:

- أجل أجل لقد تذكرتك.. أنا النقيب "هزاع" من أمن الدولة، هل تعلم سبب قدومك الى هنا يا زياد؟

فأجاب كريم وما زالت علامات الخوف تسيطر على ملامح وجهه:

- لا أعلم يا سيدي.

في تلك الأثناء دخل رجل آخر وأغلق الباب.. ثم جلس بالمقعد المجاور لهزاع وهو يقول:

- لقد انتهيت من ترحيل ستةٍ وأربعين شخصاً هذا الأسبوع، هرب ثلاثة منهم ولكن سأجدهم قريباً.. ماذا عنك يا هزاع؟

- يبدو أنك أنت من سينال الترقية هذه السنة، ها أنا في الحالة الرابعة والثلاثين والتي أمامي.

- ماذا تفعل يا هزاع! انظر اليه..

- لم أفهم يا "ناصر".. ماذا تقصد؟

- هل تسمي هذا الشخص الطيف حالة!

ثم نظر الى زياد قائلاً:

- ما هي مهنتك؟

رد زياد بخوف:

- طبيب.

نظر ناصر الى هزاع متعجباً ثم قال:

- طبيب هنا في أمن الدولة يا هزاع! لابد أن هناك خطأ.. افتح ملفه في جهاز الحاسوب دعني أرى.

فتح هزاع جهاز الحاسوب وهو يقول:

- نحن لا نخطئ يا ناصر.. تفضل انظر.

بدأ ناصر يقرأه مطأطئاً رأسه بحيره ثم قال:

- حسناً، لقد فهمت.. انظر يا دكتور زياد.. أنت الآن تجلس في أمن الدولة.. ولكن يبدو من ملامحك أنك انسان طيب وستتعاون معنا.. يجب عليك الرحيل من الدولة في غضون يومين، وذلك لأسباب أمنية عليا.

صدم زياد وخانته دموعه.. وبدأت تتساقط في صدمة قوية.. الغرفة تدور من حوله.. ولم يعد يعي ما يحدث من حوله.. ناوله ناصر كوب الماء، وطلب أن يشرب منه ويهدأ قليلاً، حتى استعاد وعيه من جديد..

وبدأ ناصر باكمال الاستجواب:

- لا تحزن يا زياد.. هكذا هي الدنيا.. أتعلم ما هي أكبر مصيبة في الوجود؟

فيجيبه زياد حزيناً:

- الموت.

ليرد ناصر:

- بالضبط.. يجب أن تحمد الله أنك ستخرج من هنا على قدميك.. الحمدلله أنك بكامل عافيتك.. هذا هو أهم شيء في الحياة.. صدقني ليس هناك ما يُحزن أكثر من الصحة.

التفت اليه زياد حزيناً متسائلاً:

- أنا فقط أريد أن اعرف السبب؟! لمَ علي الرحيل من هنا وأنا لم أرتكب خطأ.. بل أنا من يساعد الناس و يداوي جراحهم!

رد هزاع غير مبالٍ:

- إنه ترحيل أمني، كل ما أستطيع أن أخبرك به أنك غير مرغوب بك في بلادنا، هذا كل شيء!

بدأ زياد يتنفس بصعوبة ثم رد:

- ولكن.. ولكن أخي لم يتبقَّ على تخرجه الا أشهر قليلة..

قاطعه هزاع غير مكترث:

- ابن عمي ذهب أيضاً الى "أمريكا" ولم يكمل دراسته، وعاد الينا ليدرس هنا من جديد، ما المشكلة في ذلك؟!

أكمل زياد راجياً ومتوسلاً بصوته الحزين:

- أرجوك يا سيدي، أنا يتيم وأمي سيدة طاعنة في السن.. كما أنني لا أستطيع العودة الى وطني في ظل تلك الحروب.

ضحك هزاع ساخراً ثم قال:

- فلتحمد الله أن لديك وطن، هل تعرف "البدون"؟

أجابه زياد:

- بالتأكيد، فهم من يعيشون بيننا ولا يحملون جنسية أو هوية.

ليرد هزاع وعلى وجهه علامات الفرح:

- أحسنت، هم حيوانات لا قيمة لها بيننا، ولا فائدة من وجودهم، بعضهم للأسف قد اكتسب جنسيتنا.. بل وأصبح يعيش بيننا كأنه منا،

ولكن أعدك قريباً بتقنيات الـ "دي إن ايه".. أن نحصرهم جميعاً ونسحب منهم تلك الجنسيات، ثم نسجنهم ونطردهم جميعاً من بلادنا، أما البقية ممن لم يحالفه الحظ ويكتسب تلك الجنسية، يعيش هنا في وطننا عبئاً علينا، لذا قمنا بعمل اتفاق مع دولة جزر القمر، وقمنا باعطاء هؤلاء الحثالة تلك الجنسية مقابل المال.

ابتسم ناصر ثم قال:

- حسناً يا دكتور دعك مما يقوله هزاع.. فهو يحب المزاح والمبالغة قليلاً.. قم بكتابة طلب استرحام الآن واشرح فيه أسبابك.. وأعدك أن نساعدك.

أثناء كتابة زياد لذلك الاسترحام أمامهما، ظل ناصر يتهامس مع هزاع بلغة غريبة، بل إنها شفرات غريبة بينهما، وبعد أن انتهى زياد من الاسترحام سلمه الى هزاع.

أمسك هزاع الطلب دون أن يقرأه والقاه جانباً، ثم بدأ بطباعة ورقه من الحاسوب، أمسك بالقلم وبدأ يكتب أسفل الورقة ثم قال:

- حسناً، لقد وافقنا على طلبك، سنمد الفتره الى آخر العام، ولكن انتبه الى كلامي جيداً حتى لا تندم فيما بعد، قبل نهاية هذا العام ستأتي بتذكرة سفرك، وتأخذ مني جواز سفرك، ثم تغادر.. وجرب أن تفعل غير ذلك.

ثم ناوله هزاع تلك الورقة قائلاً:

- هذه الورقة إن اعترض أحد طريقك، فهي بديل لاقامتك الآن، بدون هذه الورقة أنت مقيم غير شرعي وستُسجن، لذا احتفظ بها جيداً.

نظر اليه ناصر قائلاً:

- لقد انتهينا معك يا دكتور، يمكنك المغادرة الآن.

بعد أن خرج زياد من الغرفة.. وفتحوا له الباب بالبطاقة الالكترونية مجدداً.. وأغلقوا مرة أخرى ذلك العالم الغامض المنعزل تماماً عن العالم الخارجي.. ليجد زياد نفسه قد عاد الى عالم الدنيا مرة أخرى.. بعد أن تم أخذه وعزله في ذلك العالم الآخر.. الذي لا يعلمه أحد من الجالسين في الخارج، فحتى الهواء بالخارج.. رائحته مختلفة تماماً عن ذلك المكان بالداخل، فجميع من بالخارج لهم مشاكل أخرى بسيطة..

أكمل زياد سيره في الشارع متجهاً الى سيارته.. حتى جلس قليلاً يفكر ويخاطب نفسه:

- ماذا يحدث؟ هل أنا مستيقظ أم أحلم؟ ماذا فعلت ليحدث كل ذلك؟

ثم أمسك بهاتفه ليجد الكثير من المكالمات الفائته.. بالطبع يعلم انهم عائلته، لقد اتصلت به الأم كثيراً، ليتصل بها بسرعة ويطمئنها، سمعت أم

زياد رنة الهاتف.. كأنها تسمع تلك الرنة للمرة الأولى.. حيث كانت الوحيدة في البيت.. لتترك كل ما بيديها.. وتذهب فوراً لتجيب عن الهاتف، وهي متأكدة أيضاً أنه زياد.. ثم بدأ زياد يروي لها كل ما حدث وهو يقود سيارته..

ربما كان ذلك الاسترحام حلاً قصير المدى.. ولكن في النهاية أفضل من لا شئ!

قد نواجه في طريقنا عقبات وصدمات قوية.. لا نستطيع حتى الوقوف أمامها.. ولكن بالتأكيد هذا لا يعني النهاية..

فلا يوجد شيء في الوجود ينتهي بلا عودة.. فحتى الأكسجين الذي نتنفسه لن ينتهي.. فالأشجار تعوضنا عن نقصه بعودته من جديد..

والماء الذي يتبخر ويختفي.. يعود الينا من جديد على هيئة أمطار.. وتلك القطرات بين ثقوب الجبال الراسخة قد تتجمد.. لتفتت تلك الأحجار العملاقة وتحولها الى حبيبات متناثرة..

والانسان الذي يموت لم يمت.. بل سيعود الى الحياة الجديدة الدائمة في الآخرة من جديد..

لا عيب من أن تسقط بالخطأ وأنت تصعد الدرج.. ولكن العيب أن تظل مستلقياً في مكانك.. والمصيبة أن تستسلم وتقرر النزول والعودة لنقطة الصفر من جديد.. دارت تلك الأفكار بمخيلة زياد فلم يستسلم.. وقرر أن يكمل حياته كيفما كانت..

٨

غَيرُ المُنكَسِر

استيقظ زياد من نومه.. فبدأت أنامله وأطرافه ترتعش.. لا يستطيع التحكم بأعصابه.. لم ينتظر حليم كثيراً، حتى أحضر تلك الحبوب من صيدليته الصغيرة في المنزل.. بعد ذلك بدل ملابسه ذاهباً الى عمله في المستشفى.. الطريق مزدحم للغاية.. فهناك اصلاحات كبيرة في الطريق الرئيسي للمستشفى.. حتى دخل زياد المستشفى وبدأ بعمله.

على الطرف الآخر دخل كريم متأخراً كعادته الى الصيدلية.. حتى أوقفه الدكتور جاسر وهو يقول ساخراً بغضب:

- كريم.. حمداً لله على سلامتك.. لقد تأخرت خمس دقائق اليوم.. أرجو ألا يتكرر ذلك مرة أخرى.. سيكون التقرير الصادر بحقك غير مرضٍ.

لتدخل من خلفه زميلته السمراء.. ولكن الدكتور جاسر لا يرى أصحاب البشرة السوداء.. أيضاً يغمض عينيه أمام أبناء الوطن.. فبشكوى بسيطة منهم.. سيكمل الدكتور جاسر بقية حياته خارج تلك المستشفى..

ليس هناك أقبح من ألا تشعر بظروف الآخرين.. متحججاً بذلك القانون الذي لا تطبقه.. يقول المثل "اتقّ شرّ الحليم اذا غضب".. لقد زادت نار الغضب لدى كريم الى أقصى حد.. حتى بعد أن أخبر حليماً بما حدث، لم يعد يرى أمامه الا ناراً مشتعله..

بينما يتدرب كريم في الصيدلية، وجد مجموعة من الأقراص الدوائية متناثرة بين رفوف الصيدلية.. وعندما أخبر الدكتور جاسر بذلك.. شكره الدكتور جاسركثيراً طالباً منه اخفاء تلك الحبوب في أي مكان.. بينما ينتهي هو من ذلك الشيء الذي بين يديه.. لاحظ كريم الدكتور جاسر وهو يخبئ ذلك الشيء داخل أدراج مكتبه.. ليبدأ الدكتور جاسر بالحديث مخاطباً الجميع:

- استمعوا إليّ جميعكم وأعيروني اهتمامكم.. دائماً ما يأتينا التفتيش ويجد عملنا متقناً للغاية..لا نريد أية أخطاء هذه المرة..

مرت الساعات.. وفجأة دخل فريق التفتيش.. يفتش من مكان للآخر.. وكالعادة في النهاية كل شيء تحت السيطرة.. لا توجد أية أخطاء.. فيشير كريم بيده باتجاه رفوف الصيدلية من الخلف قائلاً:

- هل فتشت خلف تلك الرفوف يا سيدي.

ذهب الى هناك المفتش ممسكاً بالحبوب وهو يقول مصدوماً:

- ما هذا يا دكتور جاسر؟!

بدأ الدكتور جاسر بالتلعثم.. ليتدخل الدكتور طاهر على الفور:

- إنها حبوب لعامل النظافة.. لقد كان مجهداً قليلاً بالأمس.. وكنا قد أحضرنا له هذا العلاج.. شفاه الله ذلك المسكين.

فيبدأ المفتش بالتفتيش من جديد وبعناية، ليشير له كريم من جديد الى مكتب الدكتور جاسر.. فيفتح المفتش أدراج الدكتور جاسر ثم يقول:

- لمَ "الانسولين" خارج الثلاجة يا دكتور جاسر! .. هل العامل أيضاً لديه مرض السكروكنتما تعالجانه بالأمس؟.. أرجو أن تحضرا غداً للتحقيق.. أما ذلك الصيدلي المتدرب ان اقترب منه أحد.. سيكون آخر يوم لكما بالمستشفى.

بدأت أثار الصدمة والدهشة تعم أرجاء المكان.. ما بين نظرات الاستحسان والفرحة من العمال البسطاء.. ونظرات يسودها الاحتقار من جميع الصيادلة.. ربما لأنهم جميعاً يشتركون في سمرة بشرتهم!.. بينما ذلك الغريب هو الوحيد المختلف بينهم!!

ولكن بدأت آثار الاعجاب على أحداهن من بعيد.. تقف من وراء ذلك المكتب وتراقب بشغف.. ربما لم تكن شُجاعةً مثل كريم.. فليس من السهل على أحد أن يتخذ قراراً قوياً وجريئاً كهذا..

في صباح اليوم التالي.. يأتي ذلك الأجنبي الجديد.. يقف في منتصف الصيدلية ويصفق بقوة.. ليحضر الجميع ويجتمعون حوله، ويبدأ بالتحدث اليهم جميعاً معرفاً عن نفسه "باللغة الانجليزية":

- أنا أدعى "فرناند بيل" من "بريطانيا".. وأنا المدير الجديد لصيدلية المستشفى.. أما الدكتور طاهر وجاسر سيكونان مساعديَّ من الآن.. أتمنى من الجميع العودة للعمل.. ومواصلة عملكم من جديد.. حتى أقرر ما سيحدث في الفترة القادمة.. يوم سعيد وجميل لكم جميعاً.. أنا مسرور بالعمل معكم.

لقد أصاب كريماً المرض في ذلك اليوم وتغلب عليه.. بالرغم من ذلك، قرر كريم الاستمرار وعدم التغيب.. الجميع يعمل بهدوء وبحذر شديد معه.. ولكن على النقيض تماماً.. العمال البسطاء اقتربوا منه أكثر.. تارةً يعرفونه أكثر بتفاصيل الصيدلية.. وتارة أخرى يتسامرون ..

لاحظ أحد العاملين مرض كريم.. ليخرج من المكان ويعود اليه مرة أخرى.. حاملاً بيده بعض العلاج ويناوله لكريم.. ربما لا يشعر بك إلا من تجرع من نفس الكأس.. فهؤلاء المساكين هم القلب النابض حقاً في الصيدلية.. فبينما يقطع هؤلاء البسطاء أميالاً طويلة.. ذهاباً وإياباً داخل تلك الصيدلية.. في المقابل يجلس بعض الصيادلة على مقاعدهم.. للتعامل المباشر فقط مع المرضى .. أما البعض الآخر من الصيادلة.. فيجلسون على تلك الأجهزة.

بعد وقت قليل.. ذهب أحد العمال لكريم.. وأخبره بأنّ الدكتورة "خلود" تريده في مكتبها.. فداخل تلك الصيدلية الكبيرة.. توجد غرف خاصة في الداخل للطاقم الاداري.. وصل كريم الى مكتب الدكتورة خلود.. ليجد تلك الفتاة الفاتنة التي كانت تراقبه بالأمس بنظرات الاعجاب جالسةً في مكتبها.. عيونها كاللؤلؤ المتوهج.. وشعرها المطلي بالذهب يملأ المكان سحراً.. وابتسامتها البسيطة تملأ الدنيا سعادة..

سألته خلود بخجل:

- كيف حالك الآن يا كريم.. هل أنت بخير؟.. أم تريد أن أشفع لك كي تذهب الى المنزل؟

فيبتسم كريم وهو لا يعلم بمَ يرد .. ليجيبها:

- الحمدلله أنا بخير.. الآن أنا أفضل بعد أن رأيتك.

تبتسم خلود ثم تقول:

- حسناً.. في الحقيقة أريد أن أشكر شجاعتك.. لقد شاهدت بالأمس رجلاً حقيقياً يقف أمام الخطأ.. لا أريد أن يحبطك أحدهم.. ما فعلته بالأمس كان صحيحاً.. ولكن انتبه لأنني سمعتهم يتربصون بك.. حاول ألا تنفعل اليوم.

ضحك كريم بصوت منخفض قائلاً:

- صدقيني لم تكن شجاعة مني.. ولكن لم أتحمل أن أرى خطأً يحدث من حولي وأنا صامت.. ثم إنه لم يعد هناك ما يستحق!

لتنظر اليه خلود مندهشة وتقول:

- ما هذا الكلام يا كريم.. مادام لديك قلب ينبض.. فلا تيأس أو تستسلم.. فهناك من يتألمون في الأدوار العليا في المستشفى.. وهناك من يصرخون من ألم الكيماوي الذي يجري في دمائهم.. صدقني يا كريم ليس هناك أصعب من تلك اللحظات.. التي يشعر بها مرضى السرطان.. سواء

وهم يعالجون أو حتى من دون العلاج.. فنظرات الشفقة التي يرونها في أعين الجميع.. تكفي لكسر قلوبهم ألماً.

استمع كريم باهتمام ثم قال:

- أجل.. أنتِ محقة.. يجب أن أكون حذراً أكثر فيما بعد.. بالمناسبة أشكركِ على ذلك الدواء!

فتضحك خلود خجلاً وتقول:

- العفو يا كريم.. ولكن كيف علمت بذلك؟

رد كريم بثقة:

- لقد راقبت ذلك العامل عندما غادر، كما أنَّ من يعطِ الدواء لأحدهم.. فلابد أنه سيطمئن عليه بعد ذلك، تماماً كما فعلتِ الآن.

نظرت خلود الى ساعتها قائلة:

- حسناً أيها العبقري.. يجب عليك الآن أن تذهب الى مكانك.. فالجميع يتربص بك بالخارج.. ولكن لا تقلق.. ستجدني دائماً بجانبك.

خرج كريم ليعود الى مكانه من جديد.. عقارب الساعة لا تريد التحرك.. فعقارب الساعة لا تتحرك الا في الأوقات السعيدة فقط.. وأخيراً وصل العقرب القصير الى الساعة الثالثة، ياللفرحة إنه وقت المغادرة.. ولكن المشرفة "الدكتورة سمر" طلبت من حليم عدم

المغادرة.. يجب عليه أن ينتهي من ترتيب تلك الأدوية أولاً.. فيرفض حليم ويمسك بأغراضه مغادراً دون أن يكترث!

في الليل كعادة الأصدقاء حليم وزياد وكريم.. يجتمعون سوياً ويتجولون معاً في المدينة.. نظرات الحزن واضحة على ملامح زياد فالوقت يمضي.. ولم يعد الكثير على نهاية العام.. ليبدأ حليم وكريم بتهدئته وطمأنته بأنهما لن يتركاه أبداً.. لينظر اليه كريم ويسأله:

- هل اتصل بك سالم أو أخبرك بأي جديد يا صديقي؟

ليخبره زياد بحزن واستياء:

- منذ آخر مقابلة جمعتنا ولم يعد يرد على الهاتف بعدها.. ربما حذره ابن عمه من الاقتراب مني، ربما أصبحت خطراً يهدده..

صمت زياد لبعض الوقت ورأسه للأسفل.. ثم قال بصوت أجهش:

- لقد أخبروني في المركز أنني غير مرغوب بي في هذه البلاد، ربما أصبحت خطراً عليكما أنتما أيضاً..

احتضن حليم زياداً قائلاً بنبرات حزينة:

- ماذا تقول يا أخي!.. هل جننت؟ هل فقدت الثقة بنا بهذه السرعة؟!

أمسك كريم بيد زياد وهو يقول:

- كيف تجرأ لسانك يا زياد بالتفوه بتلك الكلمات! هل تتذكران ذلك اليوم.. عندما كنا جميعاً في سيارتك.. هل تتذكر عندما قلت "أراكما تضحكان والمشاكل تحيط بكما".. هل تتذكر ماذا قال حليم وقتها؟.. لقد قال وقتها "بنا".. ليست مشكلتك وحدك يا زياد، وسنتجاوزها كما تجاوزنا كل تلك المشاكل القديمة، سيأتي الوقت وأذكرك بذلك.

رد عليهما زياد وهو يمسح دموعه:

- شكراً لكما يا صديقيّ، لا تنزعجا من كلامي، فليس لدي أحد أتكلم معه وأبوح له بما في نفسي، فكما تعلمان أنا يتيم وأمي مسنة ولا أريد ارهاقها، وأخي منشغل بدراسته ولا أريده أن يضيع جهده ومجموعه المرتفع، أرجوكما عداني عندما ارحل أن تعتنيا باسرتي، حتى أستقر بالخارج وأقوم باحضارهما..

أجابه حليم سريعاً:

- زياد لن ترحل.. وسنتجاوز ذلك الأمر.. أعدك بذلك.

رد زياد مستسلماً:

- لقد أصبحت الأقدار أقوى منا يا صديقي، لن نستطيع المواجهة، إنني أخدع نفسي كل يوم بالذهاب الى عملي، أنا أعلم مصيري في النهاية.. أعالج مرضاهم وأداوي جرحاهم.. لكن في النهاية.. سأرحل!

أجابه حليم يائساً:

- كلنا راحلون يا صديقي..

سأله كريم بنبراتٍ حزينة:

- زياد.. ما الذي نُخطط له؟!

أخرج زياد أنفاسه ثم قال:

- لن أستطيع العودة الى وطني "سوريا"، فهي تشتعل بنيران الحرب.. سأهاجر الى "استراليا" بطريقة غير شرعيه، ثم أطلب اللجوء الانساني هناك، الى أن أستقر وأحضر عائلتي من جديد!

قاطعه حليم سريعاً:

- لا تخاطر بحياتك يا زياد، الهجرة غير الشرعية خطرة.. وقد تودي بحياتك يا أخي.. يمكنني أن أدبر لك طريقه شرعية، وأحضر لك "الفيزا" سريعاً بطريقتي.

ابتسم زياد بعينين حزينتين:

- هل نسيت يا حليم، لقد أخذوا جواز سفري!

أجابه كريم ممسكاً بيده:

- لا تقلق يا زياد، حتى لو حدث ما حدث، فوالدتك وأخوك عمار تحت أعيننا، سنتكفل بهما فلا تقلق.

إنها حقيقة الحياة .. فالصديق الحقيقي قد ينشغل عنك كثيراً.. لكنه سيكون بجانبك وقت الحاجة.. فما أجمل أن يأتي حليم وزياد.. تاركين كل أشغالهما وراء ظهورهما.. تلك الكلمات البسيطة قد تبعث الأموات من القبور من جديد!

في صباح اليوم التالي.. وصل كريم الى صيدلية المستشفى.. بينما يجلس كريم اليوم في الشباك المقابل للمرضى.. يتعلم كيف يقدم التوجيه الصحيح للأدوية للمرضى.. فيأتي بجانبه أحد المساعدين قائلاً:

- كيف حالك يا صديقي.. أريد أن أنصحك أن تتوخى الحذر.. فالدكتورة سمر تتربص بك من الأمس.. وستدخل في أي لحظة بعد قليل

ابتسم كريم وهو يقول:

- لا تقلق يا صديقي.. سأتجنبها بقدر المستطاع.. لكن إن تجاوزت حدها.. أعدك أن أقطع لسانها.

حاول ذلك المساعد نهي كريم عما يخطط له منفعلاً بخوف قائلاً:

- لا يا دكتور.. صدقني لا تتهور.. هذه الدكتورة نلقبها هنا بـ "عجوز الصيدلية"، إنها عجوز.. ولن تسلم من لسانها المسموم..

بعد لحظات دخلت الدكتورة سمر متأخرة، ثم حيَّت الجميع قائلة:

- صباح الخير جميعاً.. ما عدا ذلك المتدرب الذي خيب آمالي بالأمس!

لم يرد كريم ولم يعطها أي انتباه، لتتابع هي من جديد بصوت مرتفع:

- ليس من الجيد أن يترك أحدهم ما بيده.. ليذهب ويغادر الى منزله.. ما ذنب ذلك المريض اذا تناول دواءً خاطئاً.. الاهمال عواقبه وخيمة على الجميع.

فيكرر كريم كلامها غاضباً:

- ما ذنب المريض اذا تناول دواءً خاطئاً.. فالذنب على ذلك الصيدلي الذي يأتي هنا متأخراً، ثم يمسك هاتفه جالساً ويبدأ بالمرح واللهو..

ثم مكث ملياً وصاح:

- أما من يتدرب مثل حالتي.. فقد جاء هنا حتى يخطئ ويتعلم.. هذا هو الفرق يا دكتورة سمر.. أنتِ هنا تأخذين راتبك من المستشفى.. حتى تقدمي الرعاية الصحية الكاملة للمريض.. أما أنا.. فقد جئت هنا حتى أتلقى التدريب المناسب.. لذا لا تعلقي أخطاءك على شماعة الآخرين.

لقد كانت كلمات كريم ناراً محرقة.. فبالرغم من كلماته القاسية.. إلا أنها الحقيقة مع الأسف..

بعد دقائق قليلة.. فجأة يمسك عجوزٌ بالخارج عصاه ويدخلها من الواجهة الزجاجية.. فيضرب بها الزجاج أمام الدكتورة سمر.. ويبدأ بسبها بأفظع الألفاظ القاسية.. ملابسه تدل على أنه من أبناء الوطن، فتهرب الدكتورة سمر سريعاً صارخةً مختبئةً تحت الطاولة.. أما جميع الصيادلة الآخرين فقد فروا للداخل هاربين..

ليجد كريم نفسه وحيداً أمام ساحة المعركة!.. وذلك العجوز ينظر اليه باستغراب!.. لم يكن هناك حل أفضل من التحدث.. ربما تكون مجازفة أن تتدخل في تلك الحالة.. لأنه من المواطنين والقانون في صفه ظالماً أو مظلوماً!

سأله كريم بهدوء وهو خائف:

- كيف حالك يا والدي.. لمَ أنت غاضب؟

صرخ العجوز باكياً مخرجاً ما بقلبه:

- تلك المرأة التي فرت للداخل.. من الصباح وهي تخبرني أن أنتظر علاجي هنا.. بينما هي تمسك بهاتفها وتلعب به.

رد كريم بهدوء أكثر:

- حسناً يا والدي.. أعطني فقط اسمك ورقم هاتفك.. وسوف أقوم بتحضير الأدوية الخاصة بك الآن.. فقط أريدك أن ترتاح هناك في ذلك الكرسي وتأخذ راحتك.. حتى أنتهي من جمع تلك الأدوية.. وثق تماماً أننا جميعاً هنا أبناؤك وراحتك تهمنا.

لم يكن من العجوز الا أن بكى صوت عالٍ وهو يقول:

- شكراً لك يا بني.. لا أعرف ماذا أقول لك.. أنت حقاً إنسان رائع.. أرجو أن يكون جميع من سأقابلهم في حياتي مثلك يا ولدي.

داخل الصيدلية.. الجميع جالسون في الداخل بخوف، فيمسك الدكتور طاهر سريعا بهاتفه قائلاً:

- سأتصل على الأمن في المستشفى.. فنحن مستهدفون عنصرياً.. فقط لأن تلك الدكتورة سمر سمراء اللون.. لقد قام ذلك الرجل الأبيض بمهاجمتها.. لا مكان للعنصرية في هذا المكان!

ردت الدكتورة سمر متألمة:

- أجل لقد اعتدى علي ذلك المواطن.. ويجب أن يدفع الثمن غالياً.

نظر اليها الدكتور طاهر سريعاً مبتلعاً ريقه وهو يهمهم ويقول متردداً:

- ذلك المواطن.. حسناً يا دكتورة سمر.. هل أنتِ متأكدة من أنه مواطن؟

- أجل لقد أخذت بطاقة التأمين الخاصة به، إنه من مواطني الدولة، ولكن هذا لا يهم إنه اعتداء على موظف أثناء تأدية عمله.

أجابها الدكتور طاهر مغادراً المكان معلناً انسحابه وهو يقول:

- أظن ذلك المتدرب الذي يدعى "كريم" قد احتوى الموقف.. وفي النهاية فالمسامح كريم يا دكتورة!

إنها ازدواجية المعايير في أحقر صورها.. فما أحقر أن تكيل بمكيالين.. فالعنصرية والتمييز في عصرنا الجديد أصبحت للأسف تُقسّم الى درجات.

أن تكون كريماً في تعاملك مع الآخرين، أهم بكثير من أن تكون عالماً في تخصصك.. فما قيمة العلم وأنت لا تستطيع التعامل مع المرضى.. وما قيمة ذلك العلم، وأنت لا تستطيع ايصاله للآخرين!

أخيراً حان وقت الاستراحة.. ليذهب كريم الى مكتب الدكتورة خلود.. فتتفاجأ وتبتسم كأنها كانت تنتظر قدومه بفارغ الصبر.. رحبت به خلود وطلبت منه الجلوس.. فجلس كريم وهو يقول:

- لقد كنتِ محقة يا خلود.

اندهشت خلود قائلة:

- لم أفهم.. محقةً في ماذا؟

- لقد انفعلت اليوم على الدكتورة سمر.. وذلك بعد أن أغضبتني بكلامها.

فتضحك خلود ثم تقول:

- أجل.. لقد كنت قاسياً قليلاً معها يا كريم.. ولكن أبهرني كثيراً ما فعلته اليوم مع ذلك العجوز..

يسألها كريم بشوق:

- وما رأيك بمَ حدث؟

فتفكر خلود قليلاً وتسأله:

- لقد تأكدت اليوم أنك فعلاً شخص مميز.. هل تناولت وجبة الغداء؟

- في الحقيقة.. لا، ليس بعد.. ماذا عنكِ؟

فترد خلود على استحياء:

- أنا أيضاً ليس بعد.

يضحك كريم ويبدأ بالتلعثم خَجِلاً:

- حسناً.. امم.. ما رأيك أن.. في الحقيقية..

تقاطعه خلود سريعاً وهي مبتسمة:

- أنا موافقه يا كريم.. أين ستعزمني إذن.

- ما رأيك بالـ "كافتريا" الخاصة بالمستشفى؟

- حسناً هيا بنا.

جلس كريم مع خلود بعيداً عن ذلك الازعاج.. كانت لحظات سعيدة.. فما أجمل أن تجد تلك الفرصة.. بالجلوس والتحدث الى من تطمئن إليهم.. ربما ستصادف الكثير من المتاعب والعقبات، ولكن في النهاية.. يجب أن تعيش تلك الحياة.. بحلوها ومرها.. فهناك لحظات لا تتكرر مرة أخرى.. لذا عندما تتاح الفرصة أمامك.. يجب أن تستغلها جيداً والا ستندم.. لأنها ببساطة لن تدق بابك مرة أخرى!

مرت الدقائق كثوانٍ سريعة.. فاللحظات السعيدة دائماً ما تنتهي بسرعة.. لم ينتبها للوقت الذي مضى.. ليرجعا مرة أخرى للصيدلية، ويكملا بقية اليوم..

تمضي الأيام.. وكل يوم يلتقي كريم بخلود.. كل يوم يعجب بها أكثر.. وهي أيضاً تشعر بالسعادة بتواجده قريباً.. الى أن جاء ذلك اليوم.. إنه آخر يوم في التدريب.. والذي سيقوم الدكتور طاهر وجاسر بتقييم الجميع..

بدأ جميع السُّمر بالدخول أولاً على التوالي.. الجميع يخرجون سعداء من ذلك المكان، حتى جاء دور البقية، ولكن تقييمهم لم يكن مرضياً بخلاف من دخلوا أولاً.. ربما لأنهم لم يتدربو جيداً!.. ولكن بالتأكيد ليس لأنهم يشتركون ببياض بشرتهم! فلا مكان للعنصرية في هذا المكان!

لقد جهز الدكتور فرناند بيل حفلة كبيرة بمناسبة انتهاء ذلك التدريب.. حضر كريم ذلك الاحتفال، ولكن لم يستطع الجلوس كثيراً.. فسرعان ما غادر سريعاً.. بحجة انشغاله بالامتحان في الجامعة.. فلم يتحمل تلك الوجوه الكاذبة.. وتلك الكلمات المتملقة بين الجميع.

في صباح اليوم التالي.. ذهب كريم الى مكتب الدكتور مالك.. فيرحب به الدكتور ويطلب منه الجلوس.. فيسأله كريم منفعلاً:

- دكتور مالك.. هل ستعتمد تلك النتائج الظالمة!

فيضحك الدكتور مالك ثم يقول:

- لا تقلق.. أعلم أنهم قاموا بتوزيع الدرجات على حسب ألوانكم وأشكالكم..

ثم نظر الى كريم يمازحه:

- هلّا صبغت جسمك بالسواد؟ لو فعلتها لحصلت بالتأكيد على العلامة الكاملة!.. تلك النتائج بالتأكيد لن أعتمدها أبداً.. سوف أضع درجات جيدة للجميع فلا تقلق.. للأسف الجامعة حددت لنا أن نقوم بتوزيع الدرجات.. بحيث لا يحصل على الامتياز أكثر من ثلاثة طلاب.. إن الموضوع في أغلبه ربحي "بيزنس".. لأنه اذا حصل عدد كبير على الامتياز.. سيحصلون بذلك على خصم التفوق.. وهنا ستخسر الجامعة.. أعلم أنك الوحيد الذي لديك مادة اضافية مع تدريب المستشفى.. وأن عدد الساعات لديك أكثر من ١٤ ساعة.. وهي عدد الساعات المقبولة

لخصم التفوق.. فتدريب المستشفى ١٢ ساعة فقط.. لذا فأنت أكثر من يستحق ذلك الامتياز.. ليس مجاملة مني ولكن لأساعدك بذلك الخصم.. وفي الحقيقة أيضاً لقد سمعت ما فعلته هناك، وأنت حقاً تستحق الامتياز بما فعلته.

رد كريم مسروراً:

- لا أعلم ماذا أقول لك يا دكتور.. شكراً جداً على كل ما تقدمه من أجلنا.. لقد تعلمت منك الكثير حقاً.

فيبتسم الدكتور مالك ثم يقول:

- اسمع يا كريم.. أنا لن أقف أبداً مع شيء لست مقتنعاً به.. وما طلبته مني ادارة الجامعة لم أقتنع به.. لأنه ببساطه أمر غير انساني وغير أخلاقي.. لأن هناك من يستحقون الامتياز بحق، ومن الظلم أن نحرمهم من ذلك.. اتمنى عندما تتخرج إن شاء الله.. أن تقوم بتطبيق العدل.. وأن تحارب أي شئ يقف ضد الانسانية.

- لا تقلق يا دكتور.. سأكون دائماً محل ثقتلك.

إنها لحظات صعبة.. عندما تفارق تلك النماذج الطيبة التي علمتنا الكثير في تلك الحياة.. بل ووقفت بجانبنا كثيراً.. ولكنّ الحياة كالقطار السريع الذي لا يتوقف.. ماراً بتلك المحطات الكثيرة.. تنتهي محطة وتبدأ

الأخرى.. أشخاصٌ يخرجون من القطار.. وأخرون يجلسون في أماكن من خرجوا.. ويستمر القطار بالسير سريعاً..

٩

العُنصُرِيَّةُ المُقَنَّعَة

مرت الشهور سريعاً.. وتخرج حليم وكريم أخيراً من الجامعة.. ولكن لم يوافقا على حضور حفلة التخرج.. فالظروف لم تعد تسمح لهما بالاحتفال.. فقد كثرت الأحزان في هذه الآونة، وأصبح من الصعب أن يجد الأصدقاء وقتاً للاحتفال.. فقد اقترب موعد رحيل زياد ولم يجدوا حلاً.. أما ذلك الضابط فأصبح يتصل بزياد كثيراً.. وفي إحدى المرات.. يرد زياد مرتعشاً:

- صباح النور يا سيدي.. حسناً.. حسناً.. حاضر.. سأحضر بالتأكيد.. أعلم أنه لا مفر.. .. سأحجز تذكرة سفري الأسبوع القادم إن شاء الله وآتي.. حاضر.. مع السلامة.

بالرغم من سرعة المكالمة بتلك الكلمات القليلة..لكن تلك الكلمات كانت الأقسى على ذلك اليتيم، بل أثقل من الأحجار الضحمة فوق ظهره.. كانت كافية أن تقلب مزاج زياد.. بل كانت كفيلة أن تسقطه على ذلك الكرسي.. إن بعض الكلمات بالرغم من بساطتها.. قد تكون قاتلة!

بينما يعمل زياد في تلك المستشفى.. متحدياً كل الظروف التي تقف كحائط الصد أمامه، ولكن كل تركيزه على هدفه وعمله.. متفقداً العنابر والمرضى، رحيماً بهم كعادته، لا يحمّلهم ذنب أناس آخرين، لم يرعوا للانسانية حقها، ولكن ما ذنب هؤلاء المرضى فيما يحدث له.. رنَّ هاتف زياد ليرد صارخاً:

- أحضرها يا أخي سريعاً ماذا تنتظر..

في غرفة الطوارئ.. يقف زياد بجانب والدته التي فقدت الوعي، ويمسك زياد ببعض الأوراق ثم يبدأ بمراقبة تلك الشاشة.. التي تظهر نبض والدته وتلك التفاصيل الأخرى لحالتها.. فيدخل طبيبٌ آخر ممسكاً بكتف زياد وهو يقول:

- لقد كانت والدتك مريضة بالضغط يا دكتور زياد، وبالتأكيد أنك تعلم أنه إن لم يتم التحكم بضغط الدم، قد تتفاقم الحالة وتصل للـ..

بدأ ذلك الطبيب ببلع ريقه ولم يستطع الاكمال، أما زياد فقد انحنى مقبلاً يد والدته حزيناً وهو يقول:

- لا تخافي يا أمي، سينتهي كل شيءٍ قريباً، وسيكمل عمار دراسته.. بل سيكون من الأوائل على الدولة، سيحصل على المنحة، وسيتخرج ويكون طبيباً صالحاً تماماً مثلي إن شاء الله..

حاول الطبيب صديق زياد مواساته، ثم أخذ بيده الى خارج الغرفة قائلاً:

- دعها ترتاح قليلاً.. تعال معي نتكلم خارجاً..

في الخارج أمام باب الغرفة.. جلس زياد واضعاً يده فوق وجهه، فحاول صديقه تهدئته قائلاً:

- اهدأ يا زياد والدتك بخير، أعلم أنك تعرف كل شئ، ولكن تمسك بالأمل يا صديقي، فأنت تعلم أن إرادة الله فوق كل شيء.. وكثيراً ما ينعم الله وتحدث معجزاتٌ لم نكن نتوقعها!

رفع زياد يده من على وجهه يمسح دموعه قائلاً:

- أعلم أنها جلطة دماغية شديدة يا "عبدالله"، ولكن.. هل تعلم أكثر ما يحزنني؟

- ماذا؟

- أصعب اللحظات التي تمر علينا نحن الأطباء، أن أكون أنا السبب في شفاء المرضى، بينما تنام والدتي في الداخل بين الحياة والموت، وأنا أقف هنا عاجزاً كالأطفال!.. بل إنه أنا السبب في تلك الجلطة!

- لا عليك يا زياد ستشفى والدتك بإذن الله قريباً، كما أننا نمتلك كل الأجهزة المتطورة هنا، لا تقلق وادع لها في صلاتك..

إنّ مسببات ارتفاع ضغط الدم عوامل كثيرة كما درس زياد.. ولكنه يعلم تماماً السبب الرئيسي لحالة والدته.. هذه المرة وصل ضغط أم زياد لأقصى حد.. إنه يسمى "ضغط الطوارئ"، والذي يسبب الاغماء.. إنّ تلك الحالة كفيلة أن تسبب لها الجلطة وربما الشلل النصفي.. وأحياناً يؤدي الى الوفاة.

أما ذلك الضابط، لابد أنه سعيد بفرض قوته على الآخرين.. ربما في ذلك الوقت كان يستمتع في احدى المتنزهات مع عائلته.. أو ربما كان يجلس باحدى المقاهي.. مغازلاً المضيفات هنا وهناك وبيده عصا النَّارَجِيلَة.. متابعاً مباريات كرة القدم وغير مبالٍ.

اتصلت خلود على كريم طالبةً مقابلته.. ليتفقا ويلتقيا في ذلك المقهى.. لاحظت خلود علامات الحزن على ملامح كريم فسألته قلقة:

- ماذا بك يا كريم.. هل تواجه أية مشاكل.. لمَ الحزن والخوف يسيطر على ذلك الوجه البشوش؟

ليجيبها كريم حائراً وهو يفكر:

- في الحقيقة.. لا أعلم يا خلود.. كنت أود اخبارك بشيء مهم منذ فترة طويلة..

قاطعته خلود سريعاً:

- حسناً.. وأنا أيضاً كنت أود اخبارك بشيءٍ مهمٍ أيضاً.. ولكن بعد أن أستمع اليك أولاً..

حلَّ المساء وبدأت الشمس تختفي معلنةً انسحابها.. في المجلس الخارجي لمنزل حليم، اجتمع الأصدقاء محاولين البحث عن حل.. أما زياد فلم يستطع الحضور معهم، بل لم يستطع الذهاب لذلك الضابط كما وعده..

في تلك الأثناء بدأ كريم يخطط ويجمع قصاصات الصحف ويعلقها على الحائط.. ممسكاً بالأقلام واضعاً الخطوط والعلامات فوق بعض العبارات المهمة وهو يفكر.. أما حليم فيجلس فاتحاً جهاز "اللابتوب" الخاص به.. يقرأ جميع القوانين ويحاول الربط بينها.

إن من أصعب اللحظات أن تحاربك دولة كاملة.. ولكن الأجمل أن يقف الأصدقاء ببساطتهم.. مدافعين بكل قوة عن صديقهم.. مستخدمين تلك القوانين التي ربما تساعدهم.. ليس عيباً أن تقع على الأرض، ولكن الأجمل أن تنهض من جديد..

ليلاحظ حليم ذلك الخبر المفاجئ.. فينادي سريعاً على صديقه كريم، لقد تم إقالة الدكتور طاهر وجاسر من المستشفى.. وذلك بعد توريد شحنات فاسدة من الأدوية.. لابد أنه بصيص الأمل لهما.. فمهما كان الظلم طاغياً.. لابد أن يأتي الحق وينتصر من جديد.

بعد أيام من التخطيط.. وبعد أن تعافت أم زياد أخيراً، حان الوقت لعرض تلك الخطة..

يجلس حليم مترئساً الاجتماع ثم يقول:

- أرجو أن يستمع الي الجميع بانصات.. أولاً لنبارك جميعاً لزياد بعد أن تعافت والدته من تلك الحالة، ثانياً وبعد البحث الذي أخذ منا مجهوداً كبيراً.. توصلنا أخيراً الى التالي.. لن يغادر زياد ولن يرحل.. بل سيبقى هنا معنا حتى يقرر هو الرحيل بنفسه.

فيبتسم زياد بسخريه، بعد أن غابت الابتسامه عن وجهه طويلاً.. ثم يسأل حليماً:

- كيف ذلك يا حليم.. هل تريدني أن أقف أمامهم! هل جننت!!.. ثم إنني لاحظت كلامك الذي كان بصفة الجمع، هل هناك أحدٌ ما غيركما؟

ابتسم كريم مشيراً بيده ناحية الباب وهو يقول:

- أجل، هناك شخص كان حاضراً معنا، وهو من أعد تلك الخطة بنفسه..

ليدخل سالم من وراء الباب خجِلاً.. وما ان اقترب من زياد حتى احتضنه بشده قائلاً:

- أنا آسف يا زياد، لم أستطع مواجهتك بعد ما علمته من ابن عمي، حاولت ايجاد حل بكل ما أمكنني من قوة ولكن لم استطع، ولكن بعد أن اتصل بي الاصدقاء، أعددنا خطة محكمة جداً.

أجابه زياد متجاهلاً الماضي وهو يقول:

- لا بأس يا سالم، فأنت صديقي حتى لو لم تستطع إيجاد الحل.

قاطعهما كريم محاولاً تغيير الموضوع:

- حسناً يا أصدقا فلننسَ الماضي، ونبدأ بشرح تلك الخطة الذكية، لقد قام حليم وسالم بتنفيذ الجزء الأول من الخطة، أما الآن أنا وزياد سنكمل الجزء الآخر..

قاطعه سالم متحمساً:

- حسناً دعوني أنا أشرح الجزء الأول من الخطة.. والتي أطلقنا عليها اسم "بلاسيبو"..

سأله زياد متحمساً وهو ينصت:

- "بلاسيبو".. يبدو من اسمها أنها خطة مخادعة..

تابع سالم متحمساً أيضا:

- بالتأكيد، ففي البداية أخبرني حليم بقدراته القوية على الاختراق، فطلب مني أن أساعده في إحضار البريد الالكتروني للضابطين، وأن أخبره عن الأشياء التي يحبها كل منهما، فاستعنت بابن عمي وهذا ما تم بالفعل.. بعد ذلك قام بارسال بعض الرسائل بعناوين عن الأشياء التي يحبانها، وها قد دخل العصفور القفص سريعاً، لقد اخترق حليم جهازهما وعرفنا كل شيء..

قاطعه زياد متوتراً وهو ينظر الى حليم:

- حسناً.. ما هو السبب يا حليم؟

أجابه حليم بصوتٍ منخفض:

- لقد كان عمك في الشام، يقود كتيبة كاملة دفاعاً عن وطنه، لقد كان سبب ترحيلك هو عمك!

ظلَّ زياد شارد الذهن قليلاً.. حتى قطع سالم تفكيره قائلاً:

- حسناً يا زياد، لا تقلق لقد اكتشف حليم الكثير من الفضائح للضابطين، لأقوم أنا بفضحهم لدى النائب العام، والمفاجأة الكبرى، تم احالتهما للتقاعد..

تابع كريم قائلاً:

- لم يكن ذلك القرار سهلاً، لقد لفقنا تهماً باطله بجانب تلك الفضائح، لقد صدّق النائب العام جميع التهم والفضائح لأنه بالتأكيد قام بالتأكد من بعضها، فصدَّق البقية بدون تفكير، لذا قمنا بتسميتها "بلاسيبو"..

قاطعه زياد وهو يفكر:

- إنها خطة عبقرية بالفعل، الحمدلله أنني تخلصت منهما بفضلكم، ولكن المشكلة لازالت مستمرة، فلازال جواز سفري في ذلك المكان، وبالتأكيد سيحل محلهما آخران، صحيح أنني أفلتت من بطشهما بسبب عدم حضوري، ولكن المشكلة لاتزال باقية..

ليكمل كريم بشرح خطته بحماس:

- لهذا سيبدأ الجزء المثير من باقي الخطة.. في البداية ستقوم أنت وجميع أسرتك بتغيير أرقام هواتفكم.. بل وهواتفكم نفسها أيضاً.. وأيضاً يجب أن تنتقلوا من ذلك المنزل.. من حسن حظنا، أن ذلك المركز في المدينة الأخرى.. لقد أشتريت شرائح خلوية جديدة بأسماءٍ مجهولة.. تفضل خذها..

تناول زياد الشرائح الجديدة.. ثم تابع كريم بحماسة:

- الأمر المثير يا زياد أنك ستذهب الى ذلك المركز من جديد.. ولكن هذه المرة لن تذهب بمفردك..

قاطعه زياد والخوف يسيطر على وجهه قائلاً:

- هل جننت يا حليم.. هل تريدني ألا أعود اليكم مرة أخرى!

ضحك الجميع حتى ابتسمم زياد أخيراً.. ليتابع سالم بثقة:

- لا تخف أنا سآتي معك يا زياد، لا تخف فوالدي مستشارٌ كبير في الدولة.. ولن يستطيع أحد تهديدنا من جديد.. ستعود يا زياد.. أقسم برب السماوات أنني لن أتخلى عنك، وستعود رغماً عن ارادتهم.. وستستمر في الاقامة معنا حتى ترتب كل أغراضك وتتخذ قرارك بنفسك..

اندهش زياد قائلاً:

- من أين لك كل هذه الثقة يا سالم، فحتى إن لم يقوموا بتهديدي، سأسجَن بالقانون لمخالفتي قانون الاقامة، لقد انتهت اقامتي وانتهت صلاحية تلك الورقة التي تسلمتها من الضابطين السابقين..

فيبتسم سالم ويكمل:

- حسناً لا تتعجل الأمور يا زياد.. فبعد مراجعتي للقانون جيداً، أبشرك أنك لن ترحل، في صباح الغد سأذهب أنا وكريم وشخص آخر للمحكمة.. لقد قمت بإعداد "شيك" قيمته مئتان وخمسون ألف دولار بتاريخٍ قديم.. سيقوم ذلك الشخص برفع قضية عليك.. وسنأخذ أوراق القضية ونذهب بعد ذلك الى مركز الشرطة.. ثم يقوم بعمل منع سفر لك هناك.. ولن يستطيع أحد ابعادك أبداً حتى تدفع قيمة ذلك الـ "شيك"!

شرد سالم بذهنه سريعاً ثم تابع:

- هل تتذكر يا زياد.. لم أنسَ ذلك اليوم عندما سألني حليم.. إن كنت سأقبض عليه إن خالف القانون لمساعدة أحدهم.. لم أكن أتخيل أن أكون أنا الذي سيخالف القانون لأنقذ صديقي! الحمدلله أنني لم أكن منافقاً!

ليقاطعه حليم قائلاً:

- طبعاً أنت تعلم يا زياد أن سالماً لا يستطيع كتابة ذلك الـ "شيك" باسمه!

نظر زياد الى حليم مندهشاً:

- وبالتأكيد لن يكون أحدكم، وإلا ستكون لعبةً مكشوفة.. بل ستكون مجازفة كبيرة، فعلى الأقل لابد أن يكون ذلك الشخص من أبناء الوطن..

تدخل كريم قائلاً:

- كلامك صحيح يا زياد.. لابد أن يكون من أبناء الوطن حتى لا يتعرض للأذى..

فسأله زياد منفعلاً:

- إذن من ذلك الشخص الذي سنأمنه على ذلك المبلغ الضخم.. حتى انني لا أملك عشره من الأساس..

ليرد كريم بثقة:

- لا تقلق يا زياد.. فهي أكثر شخص أستطيع الوثوق به.. وأنا متأكد أنها لن تخون ثقتي..

قاطعه زياد ساخراً:

- هي! .. تريد أن تقحم فتاة في تلك اللعبة معنا يا كريم.. هلل جننت!.. وما الذي يجعلك تثق كل تلك الثقة بها.. ولماذا ستقبل بمساعدتنا يا كريم..

أجابه كريم بصوت هادئ:

- إنها الشخص الوحيد الذي وقف بجانبي وأنا بالتدريب.. فهناك في ذلك المكان المشبع بالعنصرية والحقد.. لم يجرؤ أحد غيرها أن يدعم موقفي، مع أنني كنت على الحق.. الشئ الآخر وهو الذي يجعلني أثق بها وأنا معصوب العينين.. (بصوت متقطع ونبرات حزينه) أنها مصابة بالمرحلة الأخيرة من السرطان.

أمسك زياد بيد كريم متأثراً وهو يقول:

- أنا آسف يا كريم.. أعتقد أن تلك الخطة جيدة جداً ومتقنة.. شكراً لكم يا أصدقائي جميعاً، لا أعلم ماذا أقول، لقد أعدتم روحي للحياة من جديد! لن أنسى ذلك المعروف منكم جميعاً.

صفق حليم جاذباً انتباه الجميع قائلاً:

- حسناً حسناً.. دعونا من تلك اللحظات الحزينة، هل الجميع موافق على تلك الخطة؟

رفع الجميع أيديهم بالتأييد.. لقد نجح الجميع بتلك الخطة المتميزة.. فمهما كان العائق كبيراً أمامك.. ومهما كانت المشاكل مستعصية.. فلابد من وجود الحلول في النهاية!

في اليوم التالي.. ذهب سالم برفقة كريم وخلود الى المحكمة، ليقفوا عند الموظف الذي استقبلهم قائلاً:

- تفضلوا جميعاً، بماذا أستطيع أن أخدمكم؟

أجابه سالم محاولاً التلاعب بملامح وجهه:

- نريد رفع قضية على صاحب هذا الـ "شيك" الذي لا يريد سداد قيمته..

ليرد الموظف باستياء:

- هؤلاء المهاجرون.. لم يكتفوا بتدمير بلادنا، بل أصبحوا يسرقوننا فارين الى بلادهم، لا تخافوا لن يفرّ ذلك الشخص، سأقوم بعمل مذكرة للقاضي الآن وأحضر لكم الطلب، ثم تذهبون جميعاً الى مركز الشرطة، وتقومون بطلب منع السفر لذلك السارق!

رغم عمل ذلك الموظف في المحكمة، إلا أن العنصرية المقنّعة تترسخ في داخله.. هل من المعقول أن يكون ذلك الشخص الذي يمثل واجهة القضاء.. يختبئ خلف عباءة العدل! إنه قناعٌ مخيف! فما بالك بالقاضي الذي يمثل العدل ولا أحد يستطيع إرجاع حكمه!

بعد ساعات.. تسلمت خلود أوراق القضية، وذهبت برفقة سالم وكريم الى مركز الشرطة، ليستقبلهم الضابط ويطلب منهم الجلوس، فيقوم سالم بتسليمه أوراق القضية قائلاً:

- نريد عمل منع سفر لذلك الشخص..

أجابه الضابط باستياء:

- أكلوا من خيرات بلادنا.. والآن يريدون الفرار بعد سرقتنا!

لتقاطعه خلود منفعلة:

- لم يقم بسرقتي، إنه طبيب وشخص محترم ولا أسمح لك بذلك الوصف..

قاطعها الضابط غاضباً:

- إذن طالما أنه شخصٌ محترم وطبيب وحنون، لماذا تريدين منعه من السفر؟.. اذهبي وتزوجيه إذن لينعم أكثر بخيراتنا!

تدخل كريم محاولاً تهدئة الوضع:

- كل ما في الأمر أنه حصل سوء تفاهم، ولا نريد اعطاءه مجالاً للهروب..

ليرد الضابط مرة أخرى بسخرية:

- ومن أنت أيضاً؟.. ومن سمح لك أصلاً بالكلام، أنتم مهاجرون ولا حق لكم بالتدخل في شؤوننا.

ليضع سالم قدمه على قدم كريم وهو جالسٌ بجانبه ثم يقول:

- كفى يا كريم اتركني أتحدث..

ثم وضع بطاقته فوق مكتب الضابط قائلاً:

- هل تعلم الى من تتحدث؟!

أمسك الضابط البطاقة وهو يفكر قائلاً:

- لقد سمعت ذلك الاسم كثيراً، هل والدك يعمل في وزارة العدل.

- أجل كان في السابق قاضي المحكمة المدنية في المدينة، والآن والدي مستشار في مجلس النواب.

قاطعه كريم مندهشاً:

- مجلس النواب!.. ولكن يا سالم لِمَ لم تخبرنا بذلك؟!

أجابه سالم مبتسماً:

- ولِمَ تريدني أن أخبركم بذلك يا صديقي، هل لأنني ابن مستشار فلا أستطيع العيش مثلكم، نحن جميعاً سواسية وأصدقاء مهما اختلفت أصولنا وأنسابنا.

بدأ الضابط ببلع ريقه ويده ترتجف معيداً البطاقة لسالم وهو يقول:

- أعذرني يا سيدي، لم أكن أعلم ذلك!.. كان عليك من البداية أن تخبرني بذلك..

ثم قام بمناداة العامل سريعاً طالباً القهوة للجميع، ثم تابع وهو ينظر الى سالم:

- أرجوك يا سيدي لا تخبر والدك، لقد كنت أمزح معكم، فكما ترون نحن هنا نواجه المجرمين كل يوم، ولا نملك أوقاتاً للمزاح والمداعبة، بالتأكيد كل من يطؤون ديارنا هم ضيوفٌ لدينا، بل أحياناً أضعهم فوق رأسي، سأنتهي الآن من طلب منع السفر، لا تقلقوا أمهلوني فقط خمس دقائق..

مرت الأيام.. وقام الجميع بتنفيذ الخطة كما رُتّبَ لها تماماً.. اجتمع الأصدقاء جميعهم صباحاً في منزل حليم، وقد حضرت أيضاً أم زياد على ذلك الكرسي المتحرك برفقة أخيه عمار، لقد جاءت اللحظة الحاسمة.. إنها لحظة المواجهة الصعبة..ليسأل زياد بقلق:

- هل أنت واثق من أنهم لن يحتجزوني هناك يا حليم؟

فيمسك حليم بيدي زياد ثم يقول:

- لا تقلق يا صديقي أنا واثق تماماً.. فقط ثق بي.. فقط ثق بي ولا تتصل أبداً بأرقامنا من هاتفك.. لقد قمت بتركيب شريحتك القديمة في هاتف آخر.. يوجد به جميع محادثاتنا في "الواتساب".. كل شيء طبيعي تماماً.. لن يشك أحدٌ بأي شيء.. لقد كتبت بعض الرسائل من رقمي حتى لا يشك أحد.. لا تخف لقد قمت بتجهيز كل شئ..

يذرف زياد دموعه محتضناً الجميع وهو يقول:

- أصدقائي.. أنا أثق بكم جميعاً.. إن لم أعد الى المنزل مرة أخرى.. والدتي وعمّار أمانة في رقابكم يا أصدقائي حتى أعود.

حاول حليم الامساك بدموعه.. لا يريد أن يتأثر زياد أكثر قائلاً:

- بالطبع إن لم تعد سأقوم بتنفيذ ما اتفقنا عليه.. لا تقلق يا زياد سالم معك.. وكل شئ تحت السيطرة.

وتنخرط الأم في البكاء وهي تقول:

- سأظل أدعو لك يا بني أن يحميك من شرهم..

ثم نظرت الى سالم قائلة:

- أرجوك يا بني ابقَ دائماً بجانبه، فهو يتيم وإن اختفى لن نستطيع إيجاده.

حاول سالم أخفاء حزنه بتلك الابتسامه ثم يقول:

- لا تخافي يا أم زياد، سيظل بعيني طوال الوقت، ولن أغادر المكان حتى يعود معي..

بدأ زياد بتوديع الجميع وتقبيل يد أمه.. وحاول تخبئة دموعه حتى لا تتأثر الأم.. يالها من لحظات صعبة تتوقف فيها الأنفاس.. أن يغادر فرد من العائلة.. لا تعلم مصيره فيما بعد.. إنها رحلة الموت بالتأكيد.. ما أشبهها بتلك الرحلات غير الشرعية.. هؤلاء الشباب الذين يهاجرون بسفن غير قانونية.. لا يعلمون ان كانوا حقاً سيصلون الى بر الأمان.. أم سيكونون وجبة لأسماك القرش المفترسة.. حتى قد يُحرم أهلوهم من رؤية جثثهم.. إنها لحظات صعبة بالتأكيد لا يتحملها قلب بشر..

١٠

فَوقَ السَّمَاءِ.. أوْ تَحتَ الأرضِ

وصل زياد وسالم الى مركز الشرطة.. ليشاهدا تلك الحقائب الكثيرة المتناثرة على الأرض خارجاً.. فيكملا طريقهما ذاهبين الى ذلك الباب الزجاجي.. فلم يعد زياد بحاجة لموظف الاستقبال.. فقد أصبح خبيراً بذلك المكان.. حتى وصلا أخيراً لمكتب الضابط بالداخل.. فيرحب بهما الضابط ويطلب منهما الجلوس.. الى أن ينتهي من تلك الأشغال التي بين يديه..

ثم يدخل ضابط آخر غاضباً وهو يقول:

- هل رأيت يا طارق ذلك الحقير من الأصول الأفغانية.. لقد قام برفع فيديو له على تطبيق "السناب شات".. يجلس ذلك القبيح في ذلك المقهى متباهياً.. بينما نحن نبحث عنه هنا.. أقسم أنني سأجره من شاربه الى هنا.. انتظر يومين فقط.. سيتفاجئ عندما يراني في جامعته!

لينظر اليه طارق غاضباً:

- حمد! .. بالطبع نحن نمزح.. فلا شيء نقوم به الا بالقانون..

ثم يشير طارق باتجاه زياد متعجباً:

- من أنتما.. ولمَ أنتما هنا؟!

- أنا زياد وهذا صديقي سالم جاء ليرافقني.. وقد أخبروني منذ فترة أن أقوم بحجز تذاكر سفري والقدوم إلى هنا..

فيقاطعه طارق سريعاً:

- أجل أجل.. أعرف ذلك.. هل تحسبني لا أعرف.. لماذا لم تحضر كما طلب منك من كانوا قبلي.. إن كنت تحسب نفسك ذكياً وأنك ستهرب من أيدينا.. تفضل بالخروج ولن يعترض أحد طريقك.. ولكن صدقني.. أنا أعرف كيف سأحضرك الي مرة أخرى..

أجابه زياد خائفاً ممسكاً ببعض المستندات:

- سيدي لم أستطع الحضور لأنني كنت برفقة والدتي في المستشفى.. لقد أصيبت بجلطة دماغية شلَّت حركتها.. وهذه المستندات تؤكد صحة كلامي..

بينما يقوم طارق بادخال البيانات في جهاز الحاسوب، أمسك حمد بتلك الأوراق ثم قام ببعثرتها فوق الطاولة بلا مبالاه، ويرد بنبرة ساخرة:

- حسناً حسناً.. أين تذكرة السفر الخاصة بك.. وهل أحضرت أمتعتك؟.. هيا كي ننتهي من ذلك الموضوع البسيط.. فلدينا أولويات أهم من ذلك بكثير!

ليرد زياد بخوف:

- لم أستطع احضار تذكرة سفري بسبب ضائقة مالية..

فجأة يضحك حمد بصوت عالٍ ثم يقول:

- اسمع اسمع يا طارق.. هل سمعت ذلك؟

مرت لحظات قصيرة.. حتى صدم طارق من شيء ما قد رآه.. ليبدأ بعد ذلك بتمزيق الأوراق التي كانت أمامه بقسوة وعنف.. وبدأ يتحدث بعباراتٍ وشفراتٍ غريبة الى حمد.. ليذهب حمد الى ذلك الحاسوب يتأكد بنفسه.. ثم ينظر طارق الى كريم مبتسماً وبكل برود يقول:

- حسناً يا كريم.. يمكن الذهاب الآن.

اندهش زياد من ردة الفعل قائلاً:

- يمكنني الذهاب! الى أين أذهب يا سيدي؟

تابع طارق ببرود شديد:

- الى أي مكان تريده يا رجل.. ولكن اعلم أنني سأجعلك تأتي راكعاً نادماً على ما فعلتَه!

لينفجر طارق وحمد في الضحك، ثم ينظر حمد الى زياد ساخراً:

- هل أنت مغفل؟! تريد الدخول الى هنا والخروج بهذه السهولة، الآن عرفت لمَ تمت اقالة من سبقونا هنا..

قاطعه طارق بعيونٍ غاضبه وهو ينظر الى زياد:

- أيّ شخص يغادر باب هذه الغرفة، إما أن نُرسل روحه فوق السماء، أو نرسل جسده تحت الأرض، فاختر ما يناسبك.. إنها الديموقراطية كما تلقبونها، انظر الى وطنك الآن كيف هُدم بسبب تلك الكلمة..

ثم التفتت عيناه الى سالم وسأله:

- من أنت أيضاً؟ أعطني بطاقتك بعد اذنك..

ناوله سالم بطاقته قائلاً:

- أنا سالم الـ...

قاطعه طارق سريعاً ممسكاً بطاقته يقرأها بتمعن:

- "سالم أحمد الحتبي" .. ابن المستشار "أحمد الحتبي" عضو مجلس النواب في الدولة، أليس كذلك؟

أجابه سالم بثقة:

- بلى.. وما الفرق إن كان والدي عضواً في مجلس النواب أم لا.. في النهاية هو بشر مثلنا!

لينظر اليه طارق تلك النظرات متحسراً وهو يقول:

- ليتك قتلت أحدهم ولم تجلس أمامي مع ذلك الشخص، هل تتوقع أن تسامحك قبيلتنا!.. انظر اليّ، أنا من قبيلتك أيها الأبله، هل نسيت جدنا شيخ القبيلة؟.. هل نسيت عندما استدانت منه الدولة الملايين في وقت حاجتها! ألم يروِ لك والدك تلك القصة؟ نحن أعرق القبائل في الدولة وأنت تريد توريطنا! هل نسيت أعمامك أين يعملون؟! هل نسيت يا سالم؟!.. لقد كسرت خاطري يا ابن العم..

تهامس الضابط حمد مع زميله طارق قليلاً، ثم انسحبا خارج الغرفة قليلاً..

مرت الدقائق ثم عادا من جديد، ليتحدث طارق من جديد:

- ستبقى معنا الليلة يا سالم، أما زياد يمكنك المغادرة الى منزلك، أنا أعرف كيف أجعلك تأتي الى هنا مرة أخرى..!

رد زياد خائفاً:

- لن أترك سالماً هنا، إما أن نخرج سوياً أو نبقى معاً.

فيمسح طارق عينيه وهو يصفق بيديه قائلاً:

- اعذراني فقد تأثرت قليلاً، كما تعلمان ليس لدي فرصة لأشاهد التلفاز، لذا ستجدانني أتأثر سريعاً من أي تمثيل حتى و لو كان ساذجاً!

ثم صرخ بأعلى صوته:

- "أبو ريم".. يا أبا ريم.. تعال.. أين أنت؟

دخل أبو ريم مسرعاً مؤدياً التحية وهو يقول:

- نعم سيدي..

فيشير طارق باتجاه زياد قائلاً:

- خذه الى الحجز..

مرت الساعات.. وزياد يجلس في الحجز مع المحتجزين، البعض بذلك الزي المرتبط بباكستان وأفغانستان.. والآخر ذو العيون الضيقة من شرق آسيا والصين وكوريا.. وهؤلاء ذوو البشرة السوداء من افريقيا.. وأبناء وطنه السوريون الذين لا يجد صعوبه في تمييزهم، جميع الألوان في الحجز من كل البلدان.. فجأة يأتي ذلك الضابط "أبو ريم" ويقوم بادخال سالم الحجز.. ليلتقط زياد أنفاسه من جديد محتضناً سالماً وهو يقول:

- ماذا حدث يا سالم؟ تفضل اجلس بجانبي واحكِ لي كل ما جرى معك بالخارج..

يبتلع سالم ريقه قليلاً وهو صامت ثم ينظر الى الأرض متخاذلاً ويقول:

- لقد وبخاني في الخارج يا زياد لأنني وقفت بجانبك، لقد خيّراني بين أن أذهب الى البيت وانسى ماحدث ويصبح ماضياً لا وجود له الآن ، أو أن أبقى معك بمبادئي السخيفة.. أنا مُهدد بسحب جنسيتي بتهمة الخيانة..

دهش زياد واتسعت عيناه وقد تبدلت ملامحه وهو يقول:

- ماذا تقول يا سالم؟! هل جننت.. لماذا لم تذهب الى منزلك؟

ثم أمسك بيده محاولا تهدئته قائلاً:

- أنا آسف يا صديقي.. أنا السبب في توريطك معي.. ربما كنت أنت على صواب عندما ابتعدت عنا.. سأخرج الآن واخبرهما أنه لا ذنب لك في كل ذلك، أنا الوحيد المتسبب في كل ذلك..

قاطعه سالم مبتسماً ممسكاً بيده قائلاً:

- ماذا بك يا زياد.. أنت دكتور وذكي، هل نسيت أننا في أمن الدولة! ثم إنني قد أقسمت على أنني لن أتخلى عنك، أيضاً لقد اتصلوا بوالدي وانتهى الأمر.. يجب أن أثبت ولائي للوطن من جديد!

- وكيف ذلك يا سالم؟

- يبدو أنني سأنضم للجيش لقضاء خدمتي العسكرية.. ولكن لا تقلق عليَّ يا زياد، فوالدي ذو منصبٍ ونفوذ، وقبيلتي وأعمامي يتولّون مناصب قيادية، ولن يتخلوا عني بالتأكيد..

في صباح اليوم التالي.. اتصل رقم غريب بخلود.. يستفسر منها عن ذلك الـ "شيك".. يخبرها أنه من مركز الشرطة.. ويطلب منها التنازل عن ذلك الشيك، والغاء منع السفر عن ذلك الرجل، رفضت خلود بشدة تلك الفكرة، ليحاول معها الضابط كثيراً.. ولكن دون جدوى.

اتصلت خلود بكريم من الرقم الآخر.. تطلب ملاقاته لموضوع طارئ.. ليلتقي بها كريم بعد ذلك في المقهى.. فتبتسم خلود ثم تقول:

- لقد اتصلوا بي كما أخبرتني..

يسألها حليم مندهشاً:

- وماذا قلتِ لهم إذن؟!

ردت خلود بسرعة مازحةً:

- بالطبع أخبرتهم بأن العقل المدبر لكل شيء يدعى كريماً.. ويجب أن تقبضوا عليه..

ضحك كريم ثم قال:

- أنا موافق ولكن بشرط.. أن يقبضوا علينا معاً.

فتبدأ خلود تتحدث بجدية:

- لا تقلق بالطبع رفضت جميع عروضهم..

ينظر اليها كريم ويسألها بشغف:

- خلود.. لمَ تفعلين كل ذلك معنا، أنتِ حتى لا تعرفين أصدقائي، لمَ كل تلك المخاطرة؟

ردت خلود ساخرة:

- لا تخف ليست شجاعة مني.. كما أخبرتك أنا مصابة بذلك المرض.. ليس هناك ما أخسره يا كريم.. في الماضي لم أكن أريد شيئاً من تلك الحياة.. كنت قد فقدت الأمل في كل شيء.. حتى العلاج توقفت عنه.. إنه في غاية الألم يا كريم لن تصدق ذلك.. وعندما رأيتك في ذلك اليوم.. تقف كالأسد وحيداً أمام هؤلاء.. بدأت الحياة تتلون وتتزين في عيني.. شكراً لك يا كريم كثيراً.. بفضلك أحببت الحياة من جديد.. وبدأت اتلقى العلاج من جديد وأتحمل ذلك الألم.

فيرد كريم وهو يتأمل عينيها:

- خلود.. في الحقيقة أنا معجب بكِ كثيراً.. وأريد الارتباط بكِ رسمياً.. ولكن ليس الآن، حتى ننتهي من تلك المشكلة..

فتنظر اليه خلود خجلة ثم تقول:

- أنا أيضاً يا كريم معجبة بك.. وأتمنى أن يأتي ذلك اليوم.. ولكن لا أعلم إن كان سيأتي أم لا؟! المهم الآن أن تكمل أنت مشوارك.. تقدم بأوراق تدريبك الآن لتحصل على الرخصة.. وسأقوم بمساعدك في امتحان الرخصة.. لقد حصلت عليها قريباً، وأملك جميع الأوراق اللازمة.

فيمسك كريم بيدها قائلاً:

- لقد قمت بتقديم أوراقي لإحدى الصيدليات.. وقريباً سأجد وظيفة ولن أستسلم وسأكمل طريقي، وسأتقدم لخطبتك ونتزوج.. وستتعالجين، وستكون هذه الأيام ذكرى نتذكرها ونضحك عليها في المستقبل إن شاء الله، أعدك بذلك يا خلود.

في مساء اليوم التالي.. بينما يتناول زياد وسالم العشاء مع بقية المحتجزين.. يسأل زياد صديقه سالماً:

- ماذا سنفعل يا صديقي..

قاطعه سالم حزيناً وهو يحتسي طبق العدس:

- لا أعلم يا زياد..

حاول زياد مواساته ممسكاً بيده:

- لا تقلق يا سالم لن..

ليقاطع حوارهما ذلك الصراخ بالخارج.. الجميع يصرخ طالبين النجدة..

صوت الصراخ ينبعث من إحدى الغرف المجاورة..

- اتصل بالاسعاف سريعاً..

- الرجل يختنق ألا ترى..

- اضرب فوق ظهره بقوة وستنزل اللقمة..

- لا فائدة، نريد طبيباً سيموت.. بسرعة..

وقف سالم مقترباً من الباب، ثم قام بضرب الباب بقوة قائلاً:

- هناك طبيب هنا بالداخل.. افتحوا بسرعة..

الجميع في الخارج يركضون في كل مكان.. باحثين عن المساعدة، فسمعه أحد الضباط.. وفوراً يفتح الباب سريعاً ويداه ترتعشان ثم يسأله:

- أين هو ذلك الدكتور، أحضره بسرعة..

أجابه زياد بكل ثقة:

- لن آتي الا إذا جاء معي سالم..

قاطعه ذلك الضابط سريعاً مستنجداً به:

- أرجوك يا دكتور لا وقت لدينا.. تعال أنت ومن تريد.. أرجوك بسرعه أنقذ صديقي قبل أن يموت!

خرج زياد وسالم مع ذلك الضابط سريعاً الى الغرفة المجاورة.. الجميع يحيطون بذلك الضابط المستلقي على الأرض، إنه "أبو ريم" بوجهة الذي أصبح مزرقاً لا يستطيع الكلام، ممسكاً رقبته محاولاً التقاط أنفاسه.. فيطلب زياد من الجميع افساح المجال ومغادرة الغرفة قائلاً:

- يجب أن تُخلوا المكان حتى أستطيع العمل، أريد مشرطاً وأنبوباً واسعاً معقمين.. إذا لم تتوافر تلك الأغراض، فيمكنكم إحضار سكينٍ نظيف وأنبوبٍ نظيف أيضاً مثل شفاطة العصير كالتي فوق تلك الطاولة هناك..

نظر طارق الى قريبه سالم بعيون قلقة، كأنه عينه تسأله إن كان يثق بذلك الطبيب؟ فأومأ سالم رأسه بأن يثق به هو أيضاً.. فيناوله طارق سكينا و شفاطة العصير وهو مرتعش اليدين قائلاً:

- كن حذراً أرجوك يا دكتور.. كان الله في عونك!

حاول زياد التركيز متذكراً آلام والدته عندما كانت في المستشفى، ليحدد بأصابعه مكان القصبة الهوائية في الرقبة ، ما أروعه من منظر.. أن

تسلم رقبتك لذلك الشخص الذي يمسك سكيناً.. بعد أن قمت بسجنه وإذلاله، ويقوم هو بإنقاذ حياتك بذلك السكين لا لقتلك.

يبدأ أبو ريم أخيراً بالتقاط أنفاسه، ويبدأ الدكتور زياد بتثبيت تلك الأنابيب حتى لا تلتئم الفتحة.. ويستطيع التنفس الى أن يأتي الأسعاف، ليعود وجه أبو ريم الى طبيعته من جديد، ممسكاً بيد زياد بين يديه يحتضنها، لا يريد ترك ذلك الملاك الذي أنقده من الموت، ارتسمت الفرحة على وجوه الجميع، الجميع يشكرون زياداً على ما فعله، أحدهم يدخل الغرفة منهكاً ملتقطاً أنفاسه بصعوبة قائلاً بحزن:

- لقد اتصلت بالاسعاف ولكن هناك زحام في الخارج، لذا ستتأخر قليلاً.. ثم ينظر مندهشاً، ماذا حدث لقد تبدل الفزع الذي كنت أشاهده الى فرحة غامرة تسود المكان، حمداً لله على سلامتك يا أبا ريم.

أجابه احد الضباط الواقفين بامتنان:

- لا تقلق.. لقد قام الدكتور بإنقاذ حياة أبي ريم.. الحمدلله لقد كُتبت له حياةً جديدة، أما أنت يا دكتور يمكنك الذهاب للحمام وتنظيف نفسك، وبعد ذلك يمكنك الاستراحة والمبيت في مكتبي المكيف حتى الصباح.

أجابه زياد والعرق يتصبب من جسده:

- لا مشكلة في ذلك، ولكن أريد أن يرافقني صديقي سالم..

أجابه الضابط وهو ينظر الى سالم:

- حسناً، لا مشكلة في ذلك..

ثم تأتي بعد ذلك سيارة الاسعاف برفقة الفريق الطبي، ويقومون بنقل أبي ريم الى المستشفى.. أما البقية فقد قاموا بترتيب المكان من جديد، وتنظيف كل شيء، حتى عاد المكان الى ما كان عليه..

في صباح اليوم التالي.. بينما يستلقي زياد وسالم على الأرض نائمين.. يدق أحدهم باب الغرفة بلطف.. ليستيقظ سالم سريعاً محاولاً ايقاظ صديقه زياد ثم يقول:

- تفضل..

فيدخل أبو ريم وفي رقبته ذلك "الشاش الطبي" واللاصق مكان تلك الفتحة، ثم يقول:

- لقد حرصت على أن لا يزعجكما أحد، وقمت باحضار وجبة الطعام الخاصة بي، أريدكما أن تأكلا حتى تشبعا ، أما أنت يا دكتور زياد، فلا أعرف كيف أرد لك ذلك الجميل، لقد أخبرني الطبيب في المستشفى، أنه لولا ما فعلته لما تمكنت من الانتظار حتى يأتي الاسعاف، ولكنت في عداد

الموتى الآن، استرح كما تشاء هنا، وقد طلبت من صديقي طارق أن ينتهي من موضوعكما سريعاً، فلا تخافا سينتهي كل شيء اليوم..

ويدخل بعد ذلك طارق، فيحاول أبو ريم الامساك به وإخراجه، فينظر اليه طارق مبتسماً ثم يقول:

- لا تخف لن أفعل شيئاً معهما، سنتناقش ودياً قليلاً بينما يتناولان الطعام.. يمكنك الجلوس معنا إذا أردت أن تتأكد بنفسك..

- حسناً سأجلس معكم قليلاً، فأنا في إجازة مرضية.. وجئت خصيصاً اليوم تاركاً المستشفى.. لرد جزءاً من ذلك الدين..

نظر طارق الى سالم باستياء قائلاً:

- قبل تلك الحادثة، قمت بالاتصال على والدك.. وللأسف تصاعد الموقف ووصل الى الوزير، ستخرج من هنا الى منزلك، ولكن يجب أن تستعد للذهاب لليمن، لم يعد أمامك خيار آخر..

ثم التفت الى زياد قائلاً:

- أما أنت يا دكتور، فالجميع هنا ممتن لما قدمته بالطبع لأبي ريم.. سأقوم بحذف كل التقارير المكتوبة بحقك سابقاً بطريقتي الخاصة، وسأسلمك جواز سفرك الآن، ولكن على حسب قوانين الدولة أنت الآن من

المخالفين للاقامة، ويجب عليك المغادرة في أسرع وقت، حاول بقدر المستطاع مغادرة الدولة في أقرب فرصة..

فيجيبه زياد بخوف:

- لا أستطيع المغادرة بطريقة مشروعة فقد انتهى جواز سفري، وقد أغلقت السفارة هنا بسبب الحرب..

فكر طارق قليلاً ثم قال:

- حسناً، يمكنك السفر الى بلدك حتى ان كان جواز سفرك منتهياً.. ولكن..

قاطعه أبو ريم منفعلاً:

- ألا تعلم أنه إن ذهب الى سوريا فلن يستطيع الخروج مرة أخرى من هناك، بل ربما يقتل هنالك.. أرجوك يا طارق حاول إيجاد حل أفضل للدكتور.

فكّر طارق قليلاً ثم لمعت عيناه قائلاً:

- حسناً هناك حل آخر لك، ولا أستطيع فعل أي شيء بعدها، أنت دكتور محترف بشهادة الجميع هنا، يمكنني تقديم مذكرة الى مكتب رئيس الدولة.. بمنحك جواز سفر بلادنا، فهناك حالات استثنائية للشخصيات

الفريدة والمحبوبة في المجتمع، أعتقد أنه لن يعارض أحد بعد ما فعلته أمامنا هنا، ولكن سيكلفك ذلك مرافقة سالم في خدمته العسكرية!

ابتسم أبو ريم سريعاً وهو يقول:

- إنها فرصة عظيمة أن تصبح واحداً منا يا زياد، فكر في الموضوع، كما أنك سترافق سالماً هناك.

ثم يقوم طارق بتسليم زياد جواز سفره قائلاً:

- خذ جواز سفرك الآن، وفكّر جيداً في منزلك ثم أبلغني بعد ذلك بقرارك، لقد انتهيت معكما ويمكنكما المغادرة بعد تناول وجبة الإفطار.

وبعد أن انتهى زياد وسالم من الطعام، وهما بالخارج.. رافقهما أبو ريم وهو يقول:

- سجل رقم هاتفي عندك يا دكتور، وإن احتجت أيّ شيء فما عليك إلا أن تبلغني، ولسوف أساعدك إن شاء الله، وإذا كنت ترغب بالهجرة بطريقة غير مشروعة.. فاتصل بي وأنا سأساعدك، فلدي الكثير من الأصدقاء في الميناء..

فيرد زياد مسروراً مصافحاً أبا ريم:

- أشكرك كثيراً أنا أيضاً، حسناً سأفكر بالأمر واتصل بك..

في المساء بعد أن قام سالم بإيصال زياد الى منزله بسيارته، وصلا الى منزل زياد الجديد الذي انتقلوا اليه مؤخراً، ليجدا سرادقاً منصوباً ، وصوت قراءة القرآن الكريم ينبعث من ذلك المكان.. يشعر زياد بإنقباض شديد يجثم على صدره، ويحس أنَّ مصيبة كبيرة قد حدثت في غيابه.

يقوم سالم سريعاً بصفَّ سيارته وينزلان راكضين الى مدخل السرادق، جميع الأصدقاء متواجدون يتقدمهم عمّار والدموع تملأ وجهه، فيمسك زياد كتفيه بعيونه المنصدمة قائلاً:

- عمّار، ماذا بك، لمَ أنت هنا، لمَ لا تدرس في الداخل وتعتني بأمنا، بالتأكيد أنه أحد الأصدقاء المقربين اليك، والدتي في الداخل وهي بخير، لابد أنها قامت بتحضير الطعام وتنتظرنا الآن، هيا يا عمّار.. هيا يا أخي.. دعنا لا نتأخر عليها، هل نسيت أنها مُقعده وتحتاج الى أحدنا؟!!

تدفقت الدموع من عيني عمّار ولم يعد يتمالك نفسه، فيحتضن أخاه زياداً بقوه وهو يجهش بالبكاء كالأطفال الصغار، فأمسك حليم بيد زياد ساحباً إياه الى الداخل حتى جلسا، وسحب كريم كرسيه ليجلس الأصدقاء جميعاً بالقرب منه، فينظر اليه حليم ويقول:

- زياد، أنت رجل مؤمن، ولابد أنك تؤمن بقضاء الله وقدره، وأيضاً أنت طبيب ماهر.. ولابد أنك واجهت الكثير من تلك الحالات أمامك، ولابد أنك كنت تعلم حالة والدتك أكثر منا، فبينما كنت أنتَ في ذلك المركز، أصيبت والدتك بجلطة جديدة، ولكنها كانت هذه المرة أشد، فاتصل بنا عمّار سريعاً ورافقتها أنا والأصدقاء وأخوك الى المستشفى..

قاطعه كريم متابعاً:

- لقد حاول الأطباء جميعاً بكل الوسائل الممكنة، وبالأخص بعدما علموا أنها والدتك.. ولكن إرادة الله كانت الغالبة..

ثم أمسك كريم بيده وتابع:

- لا تحزن يا أخي نحن جميعاً أهلك وبجانبك، ولن نتخلى عنك، ولكل أجلٍ كتاب، وهذا أجلها ولكل واحدٍ لحظة محتومة لا يمكن تأخيرها.

⑪

جُرعَةُ اَلأمَلِ

ذهب كريم صباحاً مرتدياً أجمل ثيابه الى مجموعة صيدليات المدينة، وقام بتسجيل نفسه في التدريب الخاص به لديهم، مرت الأيام سريعاً.. وأتى ذلك اليوم، فاتصلت به السكرتيرة الخاصة بتلك الصيدليات.. تخبره بأنه تم قبوله للتدريب.. وقد حصل على الموافقات الأمنية.. ويمكنه بدء التدريب من الأسبوع المقبل..

فيذهب بعد ذلك كريم الى مكان التدريب.. إنه في ذلك الـ "مول" التجاري الضخم الواسع.. حيث تقع الصيدلية في الداخل.. لكن المشاكل لا تنتهي.. فمدير الصيدلية ذلك الدكتور الذي يدعى "مازن".. لقد فشل مجدداً في الحصول على تلك الرخصة.. ومع ذلك كان هو المدير الفعلي لذلك الفرع.. لقد ظلّ ذلك الشخص يضايق حليماً كثيراً..

وفي يوم من الأيام.. وفتحت السماء أبوابها.. فامتلأت الطرقات بمياه الأمطار وأصبحت الشوارع كالبحيرات.. والسيارات كالزوارق تمشي فوقها.. رغم أن الخليج العربي يتميز بحرارة طقسه، إلا أن الشوارع

غارقة بالمياه، ربما لم يتوقع أحد أن تفعل الأمطار ذلك، فهي تحدث كل خمسة أعوامٍ تقريباً.. ولكنها ما إن تحدث، حتى تُغرق المدينة تماماً..

إنَّ من أكبر المشاكل التي نواجهها، عدم التخطيط الجيد للمستقبل، وترك كل شيء للأجيال القادمة! أو ربما للصدفة!

لم يذهب كريم الى الصيدلية بسبب سوء الأحوال الجوية.. فحتى المنشآت الحكومية أخذت رخصتها للعطلة .. حتى زياد وحليم قد أخذا تلك العطلة الطارئة.

بعد يومين.. يدخل كريم كالعادة الى ذلك الـ "مول"، ثم يتابع المشي الى أن يصل الى مدخل الصيدلية.. ليجد الدكتور "مازن" ينتظره بحرارة.. حتى أن كريماً أحس بتلك النار التي كادت أن تحرقه وهو يمر بجانبه.. فيسأله مازن غاضباً:

- من أذن لك ألا تأتي الى هنا بالأمس؟

أجابه كريم مازحاً:

- كنت أسبح في تلك الأنهار بالخارج، ليتك كنت معنا، كانت الأجواء جميلة بالفعل، ولكن للأسف قررت الوزارة عدم الذهاب للعمل حفاظاً على الأرواح.

نظر اليه مازن بحقد ثم قال:

- نحن صيادلة.. نحن لا نأخذ العطلات للاسترخاء حتى لو أمرتنا الوزارة بذلك، فالعطلة لدينا تعني العمل!

ردَّ كريم ببرود قاتل:

- ومن أنت حتى تحاسبني.. أنت حتى لست المشرف المسؤول عني.. فاسمك لم يصنف كصيدلي بعد في الوزارة!

أجابه مازن ورأسه يكاد ينفجر من الغضب:

- بالفعل أنا مجرد بائع أمام الوزارة.. بل أيضاً لست مسؤولاً عن تدريبك لأنني لم أحصل على الرخصة! حسناً ربما أنت محق.. ولكنني مدير هذا الفرع.. وأي شيء تريد أن تفعله يجب أن تخبرني قبلها، حتى لو أردت الذهاب للصلاة..

فيقاطعه كريم ضاحكاً بسخرية:

- لا أعلم كيف تقف وتعطي الدواء للمرضى.. ربما لو قمت بالوشاية عليك الآن لقاموا بسجنك.. ولكنني لن أقوم بذلك هل تعلم السبب..

رد مازن بغرور:

- بالتأكيد لن تفعل، لأنني المدير هنا!

ضحك كريم ثم تابع:

- صحيح لأنك المدير..

ثم أخرج ورقة من حقيبته مناولاً إياها لمازن وهو يقول:

- انظر ماذا وجدت هنا، لقد أشفقت عليك كثيراً عندما تمعنت تلك الورقة، لم أكن أتوقع ذلك.

ثم أخذ حليم حاجياته مغادراً.. وبدأ بتوديع الجميع.. تاركاً ذلك المتغطرس ومعه تلك الورقة، لقد قام كريم بمساعدة من حليم باختراق جهاز مازن الخاص، ليجد في النهاية أنه من دولة يعاني أهلها الكثير بسبب الحرب.. لقد صُدم كريم عندما وجد مهنته المسجلة باقامته سائق شاحنة!

فهؤلاء الذين نشفق عليهم.. ونذرف الدموع من أجل ما يعانون، نجد بعضهم ما إن يصل الى أحد المناصب.. يصبح متغطرساً ولا يعرف معنى للاحترام.. ومع ذلك ليست جميع الأصابع متشابه.. ففي كل مكان يوجد الصالح والفاسد..

يتصل كريم بخلود ويطمئن عليها كعادته.. ويخبرها بما جرى معه هناك.. فتبدأ بالتخفيف عنه ومواساته.. وحثه على الاستمرار في مكان جديد.. وعدم الاستسلام بسبب تلك الشخصيات المريضة الفاشلة..

جاءت موافقة الوزارة على نقل تدريب كريم، بالرغم مما يعانيه زياد، إلا أنه لم يتقاعس عن مساعدة صديقه كريم.. فبعد اتصالات كثيرة، وجد زياد أخيراً مكاناً مميزاً لكريم للعمل والتدريب.. تلك الصيدلية التي يديرها ذلك العجوز، يبدو أن كريماً سيستفيد الكثير من ذلك العجوز، فوراء ذلك الشيب الأبيض الذي يكسو رأسه.. تختبئ خبرات السنين والكثير من الأسرار، لابد أنه مكسب كبير لكريم.. أن يتدرب في ذلك المكان، حضر كريم الى الصيدلية في يومه الأول متوتراً.. فيقابله ذلك العجوز مبتسماً:

- كيف حالك يا كريم

يجيبه كريم بامتنان:

- الحمدلله أنا بخير يا دكتور ياسر.. أشكرك على ما فعلته معي حتى آتي الى هنا.. لقد أخبرني زياد أنهم لم يوافقوا في البداية على نقلي هنا.. ولولا اصرارك على نقلي.. لما وافقوا على ذلك!

يضحك الدكتور ياسر ثم يقول:

- بالطبع سيرفضون طلبك بعد ما فعلته بصديقهم مازن.. ألا تعلم أن هذا الشاب هو الصديق المخلص لصاحب الصيدليات.. ولكنه بالطبع أخطأ كثيراً بادارته من وجهة نظري.. لقد أخبرني زياد بكل شيء لا تقلق.. أرجو أن تتعلم وتكتسب الكثير هنا.. في البداية ستكمل الشهور المتبقية من تدريبك، يمكنك أن تحضر وقتما تشاء.. وترحل وقتما تشاء، ولكن عندما تنتهي من تدريبك وتأخذ الرخصة، ستخبرني بقرارك إما بالعمل معنا أم لا.. لأنني بحاجة الى صيدلي آخر بأقرب وقت..

رد كريم بانصات:

- أشكرك كثيراً يا دكتور ياسر.

ربما كانت كلمات بسيطة.. ولكنها شرحت صدر كريم كثيراً، ما أجمل العلم عندما تحب المكان الذي تتعلم فيه.

مرت الأسابيع حتى حفظ كريم كل شيء في الصيدلية.. الجميع يحبونه ويثقون به..

ثم بدأ الدكتور ياسر بعرض التوظيف عليه بقية مدة التدريب، ما أجمل أن تصبح مسؤولاً وأنت تتدرب، ولكن الأنظار لم تغفل عنه، لتراقب ذلك الفتى الذي بدأ يتعلم الاحترافيه في التعامل مع الآخرين..

ومع ذلك لم ينسَ كريم تلك المشكلة التي تحيط بصديقه زياد.. فالمشكلة لن تنتهى بتلك السهولة.. ولكن الحياة لن تنتهي بوجود تلك المشكلة..

وصل زياد وصديقه حليم وأبو ريم الى الميناء، ليقابلوا أحد البحارة الذين يعرفهم أبو ريم، ليتصافحوا جميعاً، ثم ينظر اليه أبو ريم قالاً:

- اسمع يا سهيل.. لن أوصيك على صديقي الدكتور، فهو يريد أن يهاجر بطريقة غير مشروعه الى "استراليا".. وكما أعلم أنَّ هذا الشيء من اختصاصك، كما أنني أريدك أن تراعيه قليلاً في التكاليف فقد ماتت والدته من قريب.. ولم يتبقَ من عائلته سوى أخيه الأصغر.

ينظر اليهم سهيل واضعاً سيجارته في فمه ويقوم باشعالها ثم يقول:

- بالتأكيد طالما أنه من طرفك حضرة الضابط سأعتني به، لا عليك، ولكن كم شخصاً سيأتي معنا؟

فيرد زياد سريعاً:

- إثنان، أنا وأخي..

ليفكر سهيل قليلاً وهو يشرب السيجارة، ثم يقول:

- حسناً سآخذ منك ثمانين ألفاً للفردين، وصدقني ذلك من أجل أبي ريم فقط..

قاطعه حليم محاولاً استعطافه:

- أيها الربّان لقد أخبرك أبو ريم أن والدته توفيت قريباً، ولم يعد له احد الا أخوه الذي يهاجر معه، كما أنه يتحمل كامل نفقات المنزل وحده، ولا يستطيع أيضاً تدبير ذلك المبلغ الكبير.

ليكمل زياد قائلاً:

- كل ما أمتلكه الآن أربعون ألفاً..

نظر اليه سهيل مشفقاً ثم قال:

- حسناً سأكتفي بستين ألفاً.. هل تستطيع توفير ستين ألفاً بعد شهرين من الآن؟

أجابه زياد :

- سيكون ذلك المبلغ جاهزاً لدي في ذلك الوقت، ولكن لمَ شهرين؟

فيجيبه سهيل مبتسماً:

- إنها موعد الرحلة القادمة، ويجب أن تعلم أنك وأخاك ستأتيان بأوراقكما فقط، فلا مكان للأمتعة على القارب..

قاطع حديثهم عجوزٌ كان يعرج بقدميه:

- هل أنت الرّبان سهيل؟

أجابه سهيل مندهشاً:

- أجل أنا هو، لمّ تسأل أيها العجوز؟

رد العجوز بحزن

- لقد أحضرت المال لكي آتي معكم، فلم يعد لي مكانٌ هنا!

أمسك به أبو ريم وهو يقول:

- أين بطاقتك أيها العجوز، لابد أنك مخالفٌ هنا، تعال معي الى المركز.

فيمسك زياد بيد أبي ريم قائلاً:

- أرجوك يا أبا ريم، دع الرجل يأتي معي، إنه كما ترى مسكينٌ وضعيف، تذكر أنك كنت بين يدي الله، فكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرحم الناس يرحمه الله»..

ليرد أبو ريم ويقول:

- عليه الصلاة والسلام.. هل تعلم يا دكتور، أنت على حق.. فما ذنب ذلك العجوز المسكين الذي يريد الفرار من هنا، سأخالف القانون للمرة الثانية في حياتي بسببك من أجل ضميري..

لم يغفل كريم عن خلود يوماً واحداً.. فكان يرافقها كل يوم الى تلك المستشفى التي تتلقى فيها العلاج.. لقد أصبح العلاج لا يطاق.. ولكن كريماً كان يطلب منها أن تتحمل قليلاً في سبيل العلاج.. فلابد من أن تطلع شمس الصباح في يوم ما.. وتشفى من ذلك المرض اللعين..

مرت الأسابيع سريعاً.. وخبرات كريم تتزايد أكثر وأكثر.. حتى اقترب موعد امتحان الرخصة.. لقد انتهى التدريب الخاص بكريم..

وفي يوم من الأيام.. بينما يصطحبها حليم الى تلك المستشفى.. تخبره خلود وهي حزينة:

- احتفظ بهذا الشيك يا كريم!

فيسألها حليم مندهشاً:

- ما هذا يا خلود!

فتجيبه خلود بصوت هادئ:

- إنه شيك بنفس قيمة ذلك الـ "شيك".. الذي داينت به صديقك، لقد اقترب أجلي يا كريم، لا تنزعج فإنها الحقيقة، ولكن إن مت قريباً.. يجب أن يضمن صديقك حقه، فبالطبع لن تصدق أسرتي تلك اللعبة.

يمزق كريم الشيك غاضباً وهو يقول:

- لم يعد هناك حاجة لذلك الـ "شيك" بعد الآن، لقد قرر زياد أن يهاجر بعيداً، لن يراه أحد مرة أخرى، وأنا واثق أنّ الأمل لازال موجوداً، ولن يحدث شئ وسوف تتعالجين باذن الله.

ترد خلود ممسكةً بيد كريم وهي مبتسمة:

- شكراً لك يا كريم..

بدأ العد التنازلي للامتحان يقترب.. والقلق والخوف يحيط بعنق كريم.. ولكنه لم يستسلم وقرر إكمال الطريق الذي بدأه.. فانقطع عن الصيدلية لفترة يدرس فيها لذلك الامتحان، عشرات الكتب وآلاف الأوراق تحيط به وهو في المنزل..

حتى أتى ذلك اليوم.. إنه يوم الاختبار الخاص بالحصول على رخصة الصيدلة، اصطحبه زياد الى مكان الامتحان في العاصمة.. فهو

يعلم المكان جيداً، لأنه حصل عليه قبله.. إنه مبنى الوزارة الضخم والمزين..

وصل كريم وزياد أخيراً.. الجميع يجلسون على تلك المقاعد.. حاملين في ايديهم تلك الكتب والأوراق.. الارتباك والخوف يسيطر على الجميع.. ولكن كريماً يجلس هادئاً لا يبالي بذلك الامتحان..

حتى في أقصى درجات التركيز.. لازال العقل منشغلاً بتلك المشاكل..

خرج كريم أخيراً من الامتحان.. واثقاً من أنه سيجتاز الامتحان بتفوق.. ومع ذلك امتنعت الابتسامه من أن ترتسم على وجهه.. اتصل الدكتور ياسر بكريم كي يطمئن عليه، ويخبره أن يأتي لملاقاته عندما تظهر نتيجة الامتحان.

مرت الأيام وجاء ذلك اليوم.. وظهرت نتيجة الامتحان.. فرغم نجاح كريم المتوقع بذلك الامتحان.. الا أن ملامح وجهه لم تتغير كثيراً.. كأنه كان يعلم بتلك النتيجة من قبل.. أو ربما أنَّ المفاجآت لم تعد تؤثر فيه! ولكن سرعان ما تذكر طلب الدكتور ياسر.

ذهب كريم على الفور للدكتور ياسر، وعندما أخبره بذلك الخبر.. ملأت السعادة وجه الدكتور ياسر.. ربما أكثر من صاحب النتيجة نفسه.. فيأخذه الدكتور ياسر خارج الصيدلية قائلاً:

- لنتكلم بعيداً عن الصيدلية قليلاً.. حسناً انظر يا كريم.. خذ هذا الظرف.. ستجد فيه ورقة العقد التي سنتفق عليه.. فكر في البيت جيداً، وأخبرني رأيك بالعرض الذي قدمته لك.. ولكن اعلم أنه سيكون العرض الأفضل.. لأنك أثبت نجاحك هنا عندي.. ولا أريد أن أخسرك يا دكتور كريم.

فيرد حليم مبتسماً:

- حسناً يا دكتور.. سأقرأ العقد وأخبرك برأيي..

يمسك الدكتور ياسر بالسيجار ثم يقول:

- اسمع يا كريم.. هناك مميزات كثيرة وضعتها لك، أول تلك المميزات.. أنه حالما وافقت على ذلك العرض، لن يكون هناك مقابلة أو امتحانات وتلك التفاهات.. أنت أكبر من تلك الأمور وقد اخترتك أنا بنفسي.. والآن اذهب واسترح في البيت، وأقرأ بنود العقد جيداً، وسأنتظر ردك بفارغ الصبر.

بعد عودة كريم إلى المنزل، بدأ بقراءة ذلك العقد المميز، وبدأ يستشير أهله الذين أخبروه بأنه الأفضل.

وفي الليل اتصل بخلود أيضاً ليسألها.. فرأيها مهم جداً بالنسبة له، لتشجعه هي أيضاً أن يوافق على ذلك العرض.. ويبدأ مشوار حياته المهني.

في اليوم التالي، ذهب كريم الى المكتب الرئيسي.. لتقابله تلك السكرتيرة هناك قائلة:

- في الحقيقة.. يوجد توصية كبيرة عليك من الدكتور ياسر، لم نفعل هذا مسبقاً مع أحد، أن يتم توظيفك بدون مقابلة.. وبدون حتى اختبار التوظيف، فلابد أنك شخص مميز، أرجو أن تكون محل ثقة الدكتور ياسر، إذهب الى مكتب الجوازات هناك.. وقم بالغاء اقامتك الحالية.. حتى نستطيع القيام بعمل إقامة جديدة لدينا.

ذهب كريم برفقة حليم وزياد الى مبنى الجوازات والهجرة، المكان مزدحم عن بكرة أبيه، فتحت هذه الشمس الحارقة، الجميع يقف خارج المركز، منظمين في صفٍ واحد، ليأخذ الأصدقاء مكانهم في ذلك الصف،

فيلاحظهم أحد الضباط الذين يقومون بتنظيم الصفوف بغضب، وما إن تعرف على زياد حتى هُرعَ إليه مسرعاً، يحتضنه بقوة قائلاً:

- أهلاً يا دكتور لمَ تقف هنا؟ فمكانك ليس في هذ الصف.. هيا تعال معي سيفرح أبو ريم كثيراً بملاقاتك.

فيجيبه زياد قائلاً بسعادة:

- أشكرك يا حضرة الضابط، لا داعي لذلك.. فقط نريد إلغاء الاقامة الخاصة بصديقي، فقد تعاقد أخيراً مع أحدى الصيدليات بعد اجتيازه امتحان الرخصة..

فيصافح الضابط كريماً قائلاً:

- تهانينا القلبية يا دكتور، إذن نريد الحلوى احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة.. أعطني الأوراق الخاصة بك وانتظروني هنا، وسأقوم بتخليص تلك المعاملة بالداخل سريعاَ..

ناوله كريم الأوراق وهو يقول:

- شكراً لك يا حضرة الضابط..

أثناء طريق العودة، وبينما يقود زياد السيارة برفقة الأصدقاء، يتضاحكون بالداخل.. نظر حليم الى زياد قائلاً:

- لقد أصبحت وزيراً يا صديقي، لن نراك تقف بعد اليوم في ذلك الصف مثلنا..

فيضحك زياد ثم يقول:

- للأسف يا حليم، المجتمع الذي نعيش به لا يعطينا حقنا كافياً، فهناك بعض المهن التي يجب أن تمتلك بعض الامتيازات، فكل دقيقة يخسرها الطبيب قد تنقذ حياة أحدهم..

فيقاطعه كريم سريعاً:

- ولكنك يا زياد فعلت شيئاً عظيماً، انظر الى ذلك الضابط كيف قام بتخليص أوراقي فوراً..

فجأة تصطدم احدى السيارات المجاورة بهم، ويحاول زياد السيطرة على السيارة، منعطفاً يميناً ويساراً.. الى أن استطاع أخيراً التحكم بها وإيقافها على كتف الطريق، لتقف تلك السيارة الأخرى وراءه..

وصلت سيارة الشرطة سريعاً، ونزل منها أحد الشرطيين ممسكاً بـ "كاميرا" التصوير، يلتقط بعض الصور لمكان الحادث، وأماكن الاصطدام في السيارتين..

ثم ينزل الأصدقاء جميعهم يطمئنون بعضهم على بعض، وينزل أحد الأشخاص من السيارة الأخرى مترنحاً ممسكاً بإحدى الزجاجات، فيقترب الشرطي من زياد طالباً منه الرخصة قائلاً:

- بعد اذنك يا سيدي، أريد رخصة القيادة الخاصة بك..

فيناوله زياد الرخصة، ثم يتدخل كريم قائلاً:

- انظر يا حضرة الضابط الى ذلك الشخص كيف يترنح.. لابد أنه كان سكران بينما يقود، إنه المتسبب في ذلك الحادث..

ينظر اليه الشرطي ويقول:

- حسناً ما رأيك أن تأخذ ملابسي، وتجلس في سيارتي، وتقوم أنت بإكمال التقرير، هل ستقوم بتعليمي وظيفتي؟!

ليعود اليهم الشرطي من جديد قائلاً:

- اتمنى أن تسامحوه فهو ضيفٌ لدينا في بلادنا، أما إذا أردتم أن استمر في كتابة التقرير، سيكون الجميع مخطئاً أمامي.. بل ستدفعون أنتم أيضاً تكاليف الغرامة..

فيقاطعه حليم منفعلاً:

- ولكنه هو الذي..

فيقاطعه زياد ممسكاً بيده قائلاً:

- حسناً يا حضرة الضابط، لا داعي لكل ذلك، سنتصالح سوياً!

أتى الشرطي الآخر راكضاً وتدخل قائلاً:

- لقد سمعتكم وأنا واقف عند سيارة الشرطة، لماذا ستتصالحان سوياً؟ لقد كان يشرب الكحول وفي حالة سُكْر، هل تقوم بابتزازهم يا علي؟ لن أسمح لك وسأرفع تقريراً بحقك للقيادات بتهمة التمييز، فلا أحد في بلادنا فوق القانون..

ثم يلتفت الى الأصدقاء وهو يقول مبتسماً:

- إن تعرضتم لأي تمييز عنصري، اتصلوا فوراً بالرقم الموحد للحكومة، لا تتنازلوا عن حقكم، المشكلة ليست في الأشخاص العنصريين، المشكلة في من يتنازل عن حقه.. هيا تفضلوا يا شباب اكملوا طريقكم، وإن ضايقكم أحد.. لا تتردوا في الاتصال، فنحن هنا لراحتكم..

اقترب منه حليم مبتسماً قائلاً:

- هل تسمح لي أن أحتضنك، فلازال الأمل موجوداً، ولكن حقاً نحن من يتنازل عن حقوقنا، حتى يأتي ذلك اليوم ويصبح ذلك الفعل شيئاً عادياً..

احتضن حليم رجل الشرطة، والتقت معه صورة تذكارية، فلابد أن تجد في أي مكان الجيد والصالح، ولكن الأهم أن تكون أنت صاحب الحق، ولا تتنازل عنه.. وبالتأكيد ستأخذ حقك بالقانون.

في صباح اليوم التالي، ذهب كريم متجهاً الى المستشفى التي تتواجد فيها خلود.. ليرى تلك الوجوه التي يسيطر على ملامحها الحزن.. والأهل ينتظرون خارج الغرفة.. والدموع تتساقط على الأرض كدماءٍ نازفة.. لابد أنه مريض آخر وهؤلاء هم أهله..

ما إن دخل كريم الغرفة.. حتى وجد جسداً مسجىً وملفوفاً بملاءةٍ بيضاء..

توجس كريم في نفسه خيفة وسأل الممرضة بارتعاش:

- لمَ تغطون وجهها.. لابد أن الطقس بارد عليها!

لم تستطع الممرضة الرد.. وإذا بدموعها تنهمر فتكشف له ما كان يخشاه.. فهي تراقب كريماً كل يوم مرافقاً تلك الفتاه، فيضع الطبيب يده على كتف كريم قائلاً بحزن:

- ﴿ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.. ادع لها بالرحمة يا بني.. لقد حاولت مقاومة ذلك المرض مراراً.. ظلت متفائلة الى آخر لحظة..

يمسك كريم برأس خلود ضاماً رأسها اليه والدموع تنهمر من عينيه قائلاً:

- استيقظي يا خلود.. انتِ لم تموتي بعد.. أعلم أن الأمر مختلط عليهم هنا.. نحن في الصباح الآن يا خلود لابد أنَّ نومكِ ثقيل.. استيقظي أرجوكِ فلدي أخبارٌ سارة لكِ.. استيقظي وسأفعل أي شيءٍ تريدينه.. ولكن لا تموتي..

لم تكن الصدمة هينة على قلب كريم.. ولم تتحمل الأرض تلك الجواهر اللامعة التي تتساقط من عيني كريم.. حتى أن أهل خلود تعرفوا عليه.. ليقوموا هم بمواساته بدلاً من العكس.. لم يعد للألم طعم بعد رحيل صاحبة الأمل..

لم تكن الاقدار دائماً تقف بصفّ كريم.. فوالده يحتضر أيضاً في إحدى مستشفيات وطنه.. وأصبح الحزن يعم أرجاء البيت في وطن كريم.. فلابد أنَّ أسرة كريم تريد السفر.. إنه شعور سئ أنه يحتضر أحدهم أمامك.. وتقف مكتوف اليدين لا تستطيع حتى ملاقاته.. بل إن الأسوء أن يكون ذلك الشخص هو والدك!

لم يتمالك كريم أعصابه.. فكل ما يشغل تفكيره.. أنه يريد السفر بأي وسيلة كانت وفي أقرب فرصة.. لم ينتظر كريم حتى عاد من الخارج بتذاكر السفر.. ولكن أقرب رحلة ستكون بعد يومين.. لم يعد هناك وقت.. فلابد من تجهيز الحقائب لأم حليم.. فالوقت يمضي سريعاً..

رغم كسوف القمر الذي استحى أن يتزين في تلك الليلة.. رغم ظلام الأرض الذي غطى كل الأرجاء، ولكنّ تلك الكلمات المليئة بالأمل.. لم تغادر ذهن كريم.. وأصبحت تتكرر بصوت خلود الذي لم يمت، فقرر كريم أن ينهض مجدداً، وألا يستسلم بعد أن أرهقته تلك الحياة الظالمة..

في اليوم التالي، عاد كريم الى منزله مهموماً.. فيتصل به الدكتور ياسر كثيراً.. ولكن كرياً استحيى من مواجهته.. لقد استخدم مبدأ صديقه سالم بالهروب من المواجهة..

ولكن سرعان ما قرر مقابلته لاحقاً في الليل.. ليجلس كريم على ذلك الكرسي، ثم يذهب كريم الى تلك الصيدلية، وما إن فتح كريم باب

الصيدلة.. حتى لاحظ ذلك الصيدلي الجديد.. فيقابله الدكتور ياسر مسروراً وهو يسأله:

- كريم يا كريم كيف حالك؟ أين أنت؟.. هل هناك جديد؟

يرد كريم متردداً:

- الحمدلله أنا بخير

فيجيبه الدكتور ياسر مدعياً الفرح:

- الحمدلله يا كريم.. لقد أسعدني كثيراً خبر حصولك على الرخصة، هل تعلم يا كريم في عرفنا نحن أصحاب الصيدليات، أنَّ الصيدلية التي لا توظف صيدلياً مصرياً نعتبرها فاشلة، كم تمنيتُ أن تكون أنت ذلك الصيدلي، لقد أحرجتني لديهم في الادارة بتجاهلك الرد عليّ..

أخذ الدكتور ياسر نفساً عميقاً، ثم تابع من جديد:

- لا أعلم إن كنت قمت بإلغاء الاقامة أم لا، ولكنني اتصلت بك كثيراً، وأنت تجاهلت كل اتصالاتي يا كريم، وأنت تعلم بالطبع أن الحياة لا تنتظر أحداً.. ربما اليوم لم تجد مبتغاك في هذا المكان.. ولكن في الغد بالتأكيد ستصل الى أحلامك وتحققها في أماكن افضل!

ربما ضايقت تلك الكلمات كريماً قليلاً، ليذهب بعد ذلك الى قبر صاحبة الأمل، ممسكاً بتلك الرمال الطاهرة التي تعلوها، ويمسح بها وجهه.. لم ينسَ كريم زيارة خلود.. حتى وهي تحت التراب.. فذهب ليشاركها ما حدث معه.. لكن اليوم لم يعد كالأمس.. فصاحبة الأمل لم تعد موجودة.. لقد طُعنت غدراً بذلك المرض.. لقد اختفت جرعة الأمل التي كان يحصل عليها حليم كل مرة.. ولم يعد لها بديل في ذلك العالم.. ولكن تلك الروح الجميلة.. مازالت تحوم حول كريم.. ليخبرها كريم قائلاً:

- لقد أخلفت وعدي يا خلود، لم أكن أعلم أن الحياة قاسية! أرجو أن تسامحيني، ربما حان وقت رحيلي أنا أيضاً!

ثم يضع وردةً نضرةً فوق قبرها، ويستمر في الدعاء لها..

حتماً قطار الحياة لا يتوقف لشخص ما.. ولكن إن فاتتك المحطة التي تريدها.. فلا تيأس.. فهناك محطات أخرى كثيرة.. يمكنك النزول بواحدة منها، وإكمال مسيرتك..

(12)

اَلجُرعَةُ اَلقَاتِلَة

اقترب موعد سفر زياد وأخيه عمّار، ليجتمع الأصدقاء جميعاً في المجلس الخارجي من منزل حليم، ولكن هذه المرة من دون كريم، لينظر زياد الى حليم قائلاً:

- هل أخبرك كريم بموعد عودته؟

فيرد حليم حزيناً:

- لن يستطيع كريم العودة، فبعد أن تلقى فجأة نبأ وفاة والده، تبين أنه مطلوب لأداء الخدمة العسكرية، ولن يستطيع العودة قبل أدائها.

نظر اليه زياد بحزن ثم قال:

- كنت أتمنى أن أراه هنا بجانبنا، عندما ترجع الى مصر، قم بإبلاغ سلامي له..

ينظر اليه سالم وهو يقول:

- زياد.. هل قمت بترتيب أوراقك؟ سآتي معكم غداً لتوديعك أنت وأخيك.

يجيبه زياد خائفاً:

- أجل، كل شيء جاهز..

ثم نظر الى سالم يسأله:

- وأنت يا سالم، متى ستنضم الى خدمتك العسكرية؟

أجابه سالم مبتسماً:

- بعد أسبوع إن شاء الله..

ثم التفت الى حليم قائلاً:

- وأنت يا حليم، ماذا عنك؟

ابتسم حليم خجلاً ثم قال:

- لقد قررت النزول الى مصر الأسبوع القادم، سأتقدم لخطبة ابنة عمي، ثم بعدها سألتحق بالجيش المصري برفقة كريم، ونؤدي الخدمة العسكرية سوياً، فأنا أيضاً مطلوب للخدمة العسكرية، ستكون مغامرة شيقة لنا أنا وكريم معاً..

يبارك له الأصدقاء.. فرحين بهذا الخبر السعيد الذي فاجأهم به حليم، إنها الليلة الأخيرة التي سيجتمع فيها بقية الأصدقاء، بعدما كان يعج المكان بأصواتهم وضحكاتهم، لكنَّ الحياة ليست ثابتة، فكلُّ شيءٍ يتغير، ولكنَّ المبادئ لا تتغير أبداً..

في اليوم التالي.. اصطحب سالم الأصدقاء جميعاً الى الميناء بسيارته، وأثناء توديعهم لزياد واخيه، تأتي سيارة مسرعة من بعيد، وما إن وقفت السيارة.. حتى نزل أبو ريم سريعاً راكضاً باتجاههم وهو يصرخ:

- يا دكتور، انتظر.. انتظروا جميعاً..

إلى أن وصل اليهم ممسكاً صدره و هو يتنفس بصعوبة قائلاً:

- هاه هاه هاه.. الى أين تذهب مسرعاً يا دكتور.. هاه هاه.. ألا تريدني أن أودعك يا صديقي.. لقد تعلمت منك الكثير، لقد تغيرت حياتي كلها بسببك..

ثم اقترب منه يحتضنه وهو يقول:

- اتمنى أن تحقق أحلامك التي لم تحققها هنا في ذلك المكان الجديد، لن أنساك أبداً يا صديقي، اعتنِ بنفسك جيداً وبأخيك..

وبدأ الجميع بتوديع صديقهم، الذي ركب هو أيضاً ذلك المركب الخشبي مصطحباً أخاه معه، إنها لحظات محزنة أن تودع صديقاً مخلصاً وأنت تتوقع أنه اللقاء الأخير بينكم.. وما يحزّ في النفس أن تسلك طريقاً

لا تأمن نهايته، فذلك القارب الخشبي الذي يمتلئ بالمئات.. لا يبشر بالخير، فحركة بسيطه من أحدهم قد تودي بحياتهم جميعاً..

مرت الأيام سريعاً.. حتى قام حليم بتحضير وحزم حقائبه، فأسرته تنتظره في مصر على أحرَّ من الجمر، إنها أشد اللحظات فرحاً في أي منزل.

اصطحب سالم صديقه حليماً الى المطار، وقام بتوديعه في منطقة الزوار، إنها أقسى اللحظات التي مرّ بها سالم، فقد قام بتوديع جميع الأصدقاء، ولم يبقَ إلا هو.. ليعود بعد ذلك الى منزله حزيناً، وما إن فتح باب المنزل حتى وجد والده بانتظاره على ذلك الكرسي، تاركاً ذلك الكتاب الذي يقرأه، ثم يخلع نظارة القراءة ويضعها جانباً وهو يقول:

- تعال يا سالم، أريد أن أتحدث اليك في موضوع مهم..

فيأتي سالم ويجلس إلى جانب والده ثم يقول باحترام:

- أمرك يا والدي..

فينظر اليه والده مبتسماً وهو يقول:

- أنت تذكرني بشبابي يا ولدي، لقد تركتك تفعل كل شيء بحريتك، فمنذ طفولتك عودتك أن تكون رجلاً في كل شيء، علمتك كيف تقرأ

وتحب القراءة، الى أن وجدتُك تأتي من نفسك تلقائياً الى تلك المكتبه الكبيرة في غرفتي، وتبدأ بالقراءة والتفكير بنفسك، علمتك أن تتخذ قراراتك بمحض إرادتك دون تدخل من أحد، علمتك أن يكون تفكيرك حراً.. انظر في النهاية أين أوصلك ذلك التفكير السخيف..

فيصمت الأب قليلاً ثم يتابع:

- كان بإمكاني إرغامك على عدم مرافقة هؤلاء الأشخاص، ولكن لم أرغب في ذلك، لأنني متأكد أنك طالما تعرفت عليهم، فبالتأكيد هم من أصولٍ طيبة.. أنت الوحيد في هذه العائلة من يمتلك فكراً ناضجاً، وعقلاً راجحاً.. وربما يكون لك في المستقبل منصبٌ كبير في الدولة بعد أن يتوفاني الله -عز وجل-..

فيقاطعه سالم منفعلاً ممسكاً بيده يقبلها قائلاً:

- لا تقل ذلك يا أبي، أطال الله في عمرك..

ينظر اليه الأب ويتابع بصوت هادئ:

- إنها الحياة يا بني.. لا شيء يبقى على حاله الى الأبد، لابد أن ذلك اليوم سيأتي، ولكن أريد أن أخبرك شيئاً مهماً.

فيرد سالم مندهشاً:

- تفضل يا والدي، ما هو ذلك الشيء؟

فيتابع الأب:

- أنت الآن ستقضي خدمتك العسكرية، والتي ستكون مناورة عسكرية في إحدى دول شرق آسيا، بالتأكيد أنت تعلم أنني سأرسلك في كتيبة خاصة، تلك الكتيبة سيكون ابن عمك "سعيد" واحداً منهم..

فينظر اليه سالم مندهشاً ثم يقول:

- سعيد!.. وما شأني بذلك..

يصمت الوالد قليلاً، ثم يأخذ نفساً عميقاً ويقول:

- هل تمزح معي؟ ألا تعلم أن أبا سعيد يريد أن يتزوج ابنه من مريم ولو بالقوة، هل ستتخلى بتلك السهولة عن من يحبونك! لا تستمع لكلام الناس في القبيلة، فالحقد يملأ قلوبهم جميعاً..

نظر سالم الى عيني والده خجلاً قائلاً:

- لا تذكرني بالماضي، لقد كانت معجبة بي، ولكن ها قد اكتشفت خيانتها مع سعيد.. ولم أعد أرغب في الارتباط بها..

يمسك الأب بيد سالم يحتضنها مبتسماً ثم يقول:

- إنها تحبك أنت أيها الغبي، هل مازال الشك يراودك؟! الجميع يعرف ذلك، وإن تَزوّجَتْ بسعيد، فسيكون ذلك الزواج بالاكراه..

يرد سالم متحيراً:

- لا أعلم يا والدي، لكنني لم أعد أكترث بها هي أوعمّي أو سعيد..

يبتسم الأب قليلاً ثم يجيبه:

- إذن فهي معركتك..

يُصدم سالم ثم ينظر الى والده قائلاً:

- ماذا تقصد يا والدي؟!

صمت الأب قليلاً يتأمل عيني ابنه.. ثم قال:

- لازالت مريم تحبك ومتعلقة بك، سيتخلصون منك يا بني، حتى تنساك مريم إلى الأبد.

فيبتسم سالم هو أيضاً ويقول:

- حسناً سيكون ابنك شهيداً يا والدي، هل تحسبني خائفاً من الموت؟!

تغيرت ملامح الأب ليلتفت الى سالم غاضباً:

- بالتأكيد لا، أعلم أنك رجل لا يهاب الموت، ولكن يا ولدي يجب أن تعذرني فأنا أب، فالبتأكيد سأضحي بروحي في سبيل إنقاذك، هل تحسب أنني سأظل جالساً هنا وأنا أراك تموت أمامي وأنا جالس أنظر!

ينظر سالم الى عيني والده بخجل وهو يقول:

- حسناً.. أعترف لك أنني واثق أنها لازالت..؟

قاطعه الأب مكملاً:

- تحبك، وأنت لازلت تحبها..

ثم ينظر الوالد الى الأرض ملتقطاً أنفاسه.. ثم يلتفت الى سالم قائلاً:

- انظر يا سالم، لكي تصل الى مناصب أعلى كل مرة، يجب أن تتخلى عن القليل من مبادئك، الى أن يأتي ذلك اليوم وتجد نفسك متخلياً عن جميع مبادئك، وقتها ستكون جالساً على كرسي شيخ القبيلة بلا منافس!

يصمت الوالد قليلاً .. ثم يرفع رأسه للأعلى متأملاً السقف ويتابع بهدوء شديد:

- لقد ربيتك صغيراً على اتخاذ جميع قراراتك بنفسك، حتى أصدقاؤك لم أتدخل يوماً واحداً في انتقائهم، أنا أعلم تماماً قرارك من قبل أن أتناقش معك، ولكن ليكن هذا الطلب الوحيد في حياتي، أريدك بجانبي يا بني، حتى لو قتلته.. اقتله يا بني.. اقتله.. إنه مجرد سم ستضعه له في طعامه، لن يكون هناك دماء، هو سيموت عاجلاً أم آجلاً، أما أنت.. المستقبل لازال يضيء أمامك.. تلك الثروة التي جناها عمك.. من حقك أنت وحدك!

ينظر سالم الى والده مصدوماً من هول ما يسمعه ثم يسأله صارخاً:

- والدي.. هل تريدني أن أقتل ابن عمي؟.. هل تريدني أن أقتل ذلك الشخص، كنا نلعب سوياً ونحن صغار.. نأكل معاً من نفس الطبق، ننام

سوياً في نفس الغرفة، هل تريدني أن أتخلص منه من أجل مريم؟.. أم من أجل بضع شركاتٍ وأبراج؟ ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم هم وثروتهم..

بدأت عينا أبي سالم تقذف بالشرر قائلاً:

- اسمع أيها الغبي، إنها معركتك ولا مفر منها، إما أن تكون قاتلاً أو مقتولاً.. اتخذ قرارك كما تشاء، ولكن لتعلم جيداً أنني لن أتخلى عنك مهما حدث، فإما أنت تقتله أنت، وإما أن أتخلص أنا منه بطريقتي، ولكنّي لن أدعك تموت مهما حدث.

يفكر سالم قليلاً.. ثم ينظر الى والده متحسراً قائلاً:

- هل فكرة ادخالي السجن، وإعطائي الخيارين أن أعود للمنزل، أو أن أبقى مع صديقي من أوامرك؟

نظر الوالد الى سالم بعينين حائرتين ثم قال:

- أجل، كانت فكري.. أردتك أن ترى حقيقة مبادئك السخيفة بدون نفوذ والدك..

قاطعه سالم بنبرات حزينة:

- هل وصل بك الحال يا والدي أن تأمر بسجني؟

يرد الوالد سريعاً مستنكراً:

- لم يكن سجناً.. كان مجرد حجز، ثم إنه لم يكن قراري.. أنت من اخترت أن تسلك ذلك الطريق بنفسك..

يمسك الوالد بنظارة القراءة من جديد، ويتحرك من كرسيه الى تلك المكتبة الضخمة بجواره، ثم ينتقي كتاباً جديداً عنوانه "فنون وحيل القتل"، ثم يلتفت الى سالم وهو يقول:

- يمكنك الآن الذهاب الى غرفتك وتجهيز أغراضك، أما ذلك السُّم، فستجده في أنبوب زجاجي صغير.. في إحدى الجيوب السرية داخل الحقيبة العسكرية الخاصة بك..

مرّت الأيام سريعاً، وبينما سالم يقف أمام مرآة الحمام المرفقة بغرفته، يحلق شعر رأسه كاملاً، ثم يخرج الى الغرفة، مرتدياً زيَّه العسكري.. ، و يمسك بالقرآن الكريم يقبله ويضعه فوق جبينه، و يحتفظ به في حقيبته العسكرية..

ما أعجب ذلك القدر.. وما أشبه تلك اللحظات التي تشابهت في نفس الوقت..

يقف حليم وكريم كل منهما أيضاً أمام المرآة الخاصة بهما في منزلهما، تشابهت الأفعال بينهم جميعاً، ولكن الأماكن هي المختلفة، فلا يستطيع أحد التخلف عن نداء الوطن!

يخرج كريم من غرفته فيجد والدته في الخارج، لينحني أمامها مقبلاً يدها ورأسها، فتمسك الأم برأسه محتضنةً إياه وهي تقول:

- يا رب احفظه برعايتك، حاول أن تعتني بنفسك يا بني، فلم يعد لي في الدنيا الا أنت وأخوك الأكبر..

فيقبل كريم رأسها مبتسماً ثم يقول:

- نحن لسنا في حربٍ يا أمي، إنها مجرد خدمة عسكرية، لمَ ذلك القلق.. يكفيني فخراً يا أمي أنني سأخدم في جيش بلادي.. حتى وإن مت برصاصات الغدر من الإرهابيين.. سأكتب عند الله -عز وجل- شهيداً..

- ليحفظك الله برعياته يا حبيبي..

دق باب المنزل، ليأخذ كريم حقيبته ذاهباً ناحية الباب، فيفتح الباب ويجد حليماً بانتظاره بالخارج، يطلب منه الخروج والاسراع.. وبينما يمشيان في الشارع بزيهما العسكري، إذ يشيران لأحدى سيارات الأجرة، وإذا بالسائق يحييهما ويلقي بالسيجارة من النافذة.. ويسألهما السائق مبتهجاً مسروراً :

- أهلا بأبطالنا العظماء، تفضلا بالركوب.. الى أين أستطيع إيصالكما؟

أجابه كريم وهو جالس بالمقعد الخلفي:

- نريد الذهاب الى معسكر الجيش..

عم الصمت للحظات، الى ان التفت حليم الى كريم قائلاً:

- هل تعرف يا كريم، عندما رأيت والدتك وهي تدعو لك، لقد انفطر قلبي عندما تذكرت والدتي -رحمها الله-.. كانت تقف بجانبي دائماً، كلما شعرت بأن الدنيا قد ضاقت علي، أذهب اليها وأشكو ليها.. الى أن جاء ذلك اليوم..

سأله حليم متأثراً:

- ماذا حدث؟..

أكمل حليم بنبراته الحزينة:

- لقد شاهدتها تموت أمام عيني، لقد ماتت بالالتهاب الكبدي "فايرس سي"..

قاطعه السائق سريعاً:

- الحمدلله أن العلاج أصبح متوافراً الآن، لقد تعالج الملايين من ذلك المرض أخيراً دون مقابل..

اندهش حليم وسأله حائراً:

- ماذا تقصد؟ لم أفهم شيئاً..

فينظر اليه السائق باندهاش ويقول:

- يبدو أنكما لا تعيشان هنا.. لقد قامت الدولة بعمل حملة كبيرة.. في جميع أنحاء الجمهورية تحت رعاية السيد الرئيس، لقد تم إنقاذ الكثير من الأرواح.. معظم أقاربي كانوا مصابين بذلك المرض وذهبوا لتلقي العلاج بدون مقابل..

رد حليم مبتهجاً:

- الحمدلله أن العلاج من ذلك المرض أصبح متوفراً للجميع وبلا مقابل.

ثم التفت حليم الى كريم قائلاً:

- بالمناسبة نسيت أن أدعوك يا صديقي، فخطبتي الأسبوع القادم إن شاء الله.. لابد أن تحضرها.. سنأخذ إجازة من المعسكر وسترافقني..

يرد كريم مبتسماً:

- خطبة مباركة وزواج سعيد إن شاء الله، بالتأكيد سآتي معك..

بعد لحظات.. يتوقف سائق الأجرة بسيارته أمام إحدى الصيدليات جانباً، طالباً من حليم وكريم إمهاله خمس دقائق، لاحضار الدواء الخاص بوالدته، فقد حنَّ قلب السائق بعد أن سمعهما يتحدثان.. ابتسم كريم وحليم ورافقاه إلى الصيدلية..

بعد أن مر الوقت وخرجوا جميعاً.. أتى أحدهم مترنحاً الى السائق قائلاً:

- أريد أجر وقوفك هنا..

فيخرج له السائق بعض النقود، فيمسك حليم يد السائق ويسحبه للخلف، ثم ينظر الى ذلك الشخص وهو يقول:

- لماذا تريد النقود من ذلك المسكين:

يرد ذلك الشخص متلعثماً وعيناه مُحمرتان، ولا يكاد يضبط كلامه:

- وما دخلك أنت؟! أنا "السايس" هنا، وهذا الشارع من حقي، وأي سيارة تقف هنا ستدفع مقابل الوقوف..

فيقترب منه حليم ممسكاً قميصه بقوة قائلاً:

- هل تريدنا أن ندفع مقابل الوقوف في بلدنا.. هل جننت!

يحاول كريم سحب صديقه مانعاً ذلك الشجار الذي بدأت نيرانه تشتعل..

ليبدأ "السايس" بإخراج موسىً من أسنانه، ويقوم بتشريح جسده.. ثم يصرخ بصوت عالٍ:

- أنقذوني أيها الناس.. الجيش يريد قتلي لأنني أطلب لقمة عيشي بالحلال.. يريدون أخذ كل نقودي..

بدأ جميع من الشارع بالالتفاف والتجمع حول مكان الحادث، بل أخرج أحدهم هاتفه الخاص مصوراً تلك الواقعه، ثم بدأ الكلام الجانبي يتردد بين الحضور:

- هل أصبح جيشنا يحارب الضعفاء!

- أتركوه في حاله واذهبوا الى "سيناء" لمحاربة الارهاب..

- بدلاً من أن يحمونا جاؤوا لمحاربتنا.. بل ليسرقوا أموالنا..

- مستحيل أن يكون ذلك جيشنا..

خرج الصيدلي من الصيدلية راكضاً يستفسر من أحدهم، ثم صاح بصوت عالٍ:

- ماذا هناك هل صدقتم ذلك الكاذب المتعاطي؟ كل يوم يأتي الى هنا يطلب مني أحد الأدوية المخدرة فأطرده خارجاً، إنه يقف هنا كل يوم يطلب النقود من الجميع بالقوة.. لقد قام هذان الشابان بمساعدة صاحب الأجرة في الداخل، وقاما بدفع تكاليف علاج والدته..

ثم أشار الصيدلي الى حليم وكريم قائلاً:

- إنهما مجرد مجندين في الجيش، فهذا صيدلي وذاك مهندس.. سيؤديان خدمتهما العسكرية ويعودان كحال أي منا..

بدأ الجميع يهمهم من جديد:

- صحيح أنا أعرف ذلك "السايس" المتعاطي..
- وأنا أيضاً.. إنه يدعى "عبدو مشاكل"..
- أجل لقد عرفته إنه ذلك المجرم..
- فليأخده الله ويريحنا من تلك الأشكال.. أين ذهب!
- ليحفظكم الله يا أبطال..

يقترب أحدهم من كريم وحليم بهاتفه المحمول، ثم يقول خجلاً:

- أنا آسف، لقد قمت بتصوير ما حدث، وكنت سأقوم بنشره على أن جشنا أصبح سيئاً.. أنا آسف، لقد قمت بحذف مقطع الـ "فيديو"..

فيجيبه كريم بغضب:

- كنت ستتسبب في كارثة كبيرة.. يجب عليك أن تتأكد أولاً قبل التسبب في الفتن.

في الجانب الآخر من هذا العالم، وفي تلك الساحة الواسعة في معسكر الجيش، يقف المجندون في مواقعهم بانتظام.. مشكلين فرقاً كثيرة..

كل فرقة يتقدمها شخص واحد يقودهم.. وتصطف بجانبها شاحنة واحدة لنقل الجنود.. الدبابات والمدرعات تصطف أيضاً..

وسالم يقف بجانب ابن عمه سعيد، يقفون منتظرين ومنصتين لما يقال.

وفي الجانب القريب من المعسكر، تصطف الطائرات الحربية، ويقف بالقرب من كل طائرة قائدها..

الجميع جاهزون للسفر الى شرق آسيا.. حيث ستكون المناورة العسكرية في ذلك المكان..

بعد أسبوع.. اصطحب حليم صديقه كريماً معه بالقطار، عائدين من معسكر التدريب الى بلدة حليم، بينما يجلسان في ذلك القطار، استعار كريم الهاتف المحمول من أحدهم، واتصل بوالدته يطمئن عليها، ويخبرها أنه سيحل ضيفاً هذه العطلة في بلدة حليم، ليحضر الخطبة الخاصة به.. ويبارك له بهذه المناسبة السعيدة.

بعد أن وصلا الى باب الشقة، رن حليم الجرس كثيراً، ولا أحد يجيب.. فيخرج مفاتيح المنزل من جيبه قائلاً:

- ربما خرجوا لشراء بعض الحاجيات..

يفتح جارهم العجوز باب الشقة المجاورة ممسكاً ظرفاً وهو يقول حزيناً:

- حليم.. البقاء لله يا بني، لقد جاء أحد الأشخاص منذ يومين، يتزيا بزيّ أهل الصعيد.. وفي يده بندقية طويلة، وقام بقتل والدك وأخيك..

ثم قام بتسليم الظرف لحليم قائلاً:

- وبالأمس جاء أحدهم بنفس الزي تقريباً وقام بتسليمي هذا الظرف.. أخبرني أن أعطيه لك.. انتبه على نفسك يا بني.. من خبرتي في الحياة تأكدت أنه "ثأر الصعيد"!

أمسك حليم الورقة يقرأها مرتعش اليدين، فسأله كريم:

- ما الذي كُتب فيها؟

أجابه حليم بنبرات حزينة:

- إنه جدي، يريدني أن أذهب للصعيد.. وكتب لي رقم هاتفه!

سأله كريم منصدماً:

- هل أنت من الصعيد يا حليم؟!.. لم أكن أعرف!

أجابه حليم بنظراته المريبه:

- حتى أنا!

في المساء، بعد أن ركب حليم قطار الصعيد، جلس كريم بجانبه، فبعد تلك الصداقة الكبيرة بينهما، لن يتخلى عنه كريم في تلك اللحظات العصيبة، بالأخص بعد أن أصبح وحيداً.. الأصدقاء الحقيقيون هم الأهل والدرع الواقي لنا في أصعب اللحظات..

بعد أن نزلا من القطار.. وجدا الجميع من حولهم يرتدون الجلابيب والعمائم البيضاء، أما النساء فيرتدين العبايات السوداء، لم يكن يتخيل حليم وكريم أنهما لازالا داخل الحدود المصرية! فحتى اللهجة قد تغيرت كثيراً، إنها دولة داخل الدولة!!

بعد لحظات.. جاء المئات يرتدون الزي الصعيديّ، حاملين في إحدى أيديهم العصي والأسلحة النارية والبنادق، وفي اليد الأخرى شعلة من النار، فالظلام كان دامساً والطريق طويلة، وشيخ القبيلة قد قرر أن يعودوا سيراً على الأقدام، إنها رسالة للصعيد بالكامل.. أنَّ نيران الحرب قد بدأت تُدَقُّ أجراسها من جديد.. الشوارع هادئة وخالية من البشر.. حتى الحيوانات لاذت بالفرار بعيداً..

بدأت الأبنية تظهر، العشرات يقفون فوق تلك المباني بالنيران والأسلحة، وما إن دخل حليم وكريم بذلك الفوج الذي يحيط بهما، حتى بدأت أصوات الرصاص تُسمع من فوق الأبنية..

إنها أشبه بمراسم الاستقبال الحارة.. النار تملأ المكان حرارة، لا يُعرف إن كانت حرارة تلك النيران التي يمسكها الجميع، أم أنها نيران الثأر الذي بدأ يشتعل من جديد..

وصل حليم وكريم الى ذلك المبنى الكبير الذي يتوسط البنايات، إنه منزل شيخ القبيلة، اقترب أحدهم من كريم وبدأ بتفتيشه، ثم نظر الى حليم طالباً منه بطاقته، وبعد أن تأكد ابتسم قائلاً:

- أهلا بك يا ابن العم، أنا همّام ابن عمك، لقد أضاءت الدنيا من جديد بعودتك الينا، لا تحزن.. فما حدث لن يمر بتلك السهولة.. تفضل بالدخول فجدنا في انتظارك بالداخل..

ثم التفت الى كريم قائلا:

- أما أنت فيمكنك البقاء في الخارج..

لم يستطع كريم تحريك لسانه من هول ما رأى، ولكن حليماً أصرّ أن يرافقه صديقه قائلاً:

- إنّه أخي ولا خطر من وجوده معي، ثم إنه ليس من الذوق أن تجلسوه خارجاً بعد أن قطع تلك الأميال برفقتي من العاصمة..

ابتسم همّام ثم قال:

- مهما خرجت من الصعيد واختلف لسانك، فلن تخرج شهامة أهل الصعيد منك أبداً.. تفضلا بالدخول..

دخل حليم وكريم، ليجدا جميع أفراد العائلة واقفين بانتظارهما، وتلك المائدة الطويلة جانباً تتزين بأجمل الأطعمة، لم يبذل حليم صعوبة في التعرف على جده، الذي يقف متوسطاً تلك المائدة، مرتدياً الزي الصعيدي وفوقه تلك العباءة السوداء، وفي يده تلك العصى الغليظة التي يستند عليها، وجميع الأطفال والكبار يقتربون منه مقبلين يده، فيشير الرجل الى حليم وكريم ويطلب منهما الجلوس إلى المائدة للأكل قائلاً:

- تفضلا بالجلوس وأشبعا ظمأكما، فهناك حديث طويل يجب أن نتكلم به..

مرت الدقائق سريعاً، والجد يتحدث الى حليم ويحكي له كل ما جرى، وما أصل ذلك الثأر، فحليم هو حفيد شيخ القبيلة هذا، وقد قامت قبيلة "العوامر" بالتخلص من والده وأخيه ومن عمه قبلهما، لتصبح بنت عمه التي كان ينوي حليم خطبتها يتيمة، لقد اشتعل الصعيد

من جديد متأهبين لقدوم حليم وأخذ الثأر لهم، ثم ينظر الجد إلى عيني حليم قائلاً:

- لقد عم الهدوء منذ سنوات في الصعيد، بشرط أن يختفي ولدي من مصر تماماً، لكن.. بعد أن عاد من جديد، لا أعرف كيف علم "العوامر" بذلك، إنها غلطتي لأنني من طلبت من أبيك الرجوع مرة أخرى، حتى تتزوج أنت من بنت عمك..

تغيرت ملامح الجد ثم قال بغضب:

- "العزايزة" هي أقوى قبيلة في المنطقة كلها، وستبقى الأقوى للأبد.. قم بتبديل ملابسك يا بني، ارجع الى أصلك وتسلم سلاحك، فالليلة ستكون أعظم ليلة تسطر في التاريخ!.. أطمئنك يا ولدي أن "العوامر" جميعهم الآن ترتعد أوصالهم رعباً منا، وقد أرسلوا إلينا كثيراً من المندوبين طالبين منا الصفح مقابل أن يسلمونا القاتل وما نطلبه منهم من فدية، ولكن كما تعلم يا ولدي.. فنحن أكبر قبيلة هنا، ولا يليق بنا أن نقبل بقتل رجلٍ واحد من قبيلتهم في مقابل ثلاثة أفراد من قبيلتنا..

مكث حليم ملياً يفكر، ثم قال بصوت منخفض:

- جدي.. هلّا سمحت لي أن أتحدث قليلاً!

فينظر اليه الجد بنظراتٍ مستريبة قائلاً:

- تفضل..

ينظر حليم الى الجميع بخوف، ملتقطاً أنفاسه ثم يقول بحماس:

- الى متى سنظل نسفك دماء بعضنا بعضاً؟! الى أن يغرق الصعيد بأكمله في بحار الدم.. هل أصبح القتل بهذه البساطة بيننا!.. هل سألتم أنفسكم ماذا لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاضراً بيننا الآن؟.. هل كان سيعجبه ما نفعل؟.. أرى أن نعفو ونوقف هذا النزيف من الدماء.. وأجرنا على الله ماداموا قد اعترفوا بجريمتهم وعلى استعداد لاصلاح خطئهم، وتسليمنا القاتل للقصاص منه وهذا هو حكم الله، فلماذا تأخذنا العصبية ولا ننصاع لحكم الله..قال الله -عز وجل-:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ -صدق الله العظيم-.

عمّ الصمت والذهول أرجاء المكان.. ثم طأطأ الجد رأسه وقال الجميع في صوت واحد:

- صدق الله العظيم.

ثم قال الجد:

- أنا معك.. كلامك صحيح، ولكن كيف سيتم تنفيذ ذلك؟..

قاطعه حليم سريعاً:

- سنذهب اليهم جميعاً.. أرجو أن لا يعارضني أحد.. وإلا سأذهب اليهم وحدي!

عند ذلك المنزل الكبير الخاص بقبيلة "العوامر".. يقف جميع أفراد قبيلة "الغزايزة" ويتقدمهم حليم.

يتجمهر عدد كبير من "العوامر" أمام بيت شيخ قبيلتهم ويصرون مظهرين الذل والاستعطاف على أن لا يدخل أحد الى شيخهم إلا حليم..

مرت الدقائق كسنوات طويلة، وإذا بحليم يظهر من الشرفة ممسكاً بيد كبير "العوامر"، معلنين السلام من جديد في القرية، عمت الفرحة أرجاء القبيلتين، رفع الجميع أسلحتهم للأعلى هاتفين بسعادة بهذا الانتصار، وبدأ الجميع بتهنئة بعضهم محتضنين بعضهم بعضاً..

مع كل ذلك.. لكن قلب حليم لازال ينزف ألماً، فقد فارقت والدته الحياة أمام عينيه بمرضها، وفارق الأب والأخ والعم، ولم يتبقَ له سوى صديقه كريم!

بعد ساعات يجلس كبار الشخصيات من قبيلة "العوامر" في منزل الجد شيخ قبيلة "العزايزة"، لقد أصرّ الجد أن يتناولوا الطعام معاً، حتى يعود الود من جديد بين القبيلتين، الجميع يتضاحكون فيما بينهم، يأكلون مستمتعين بعدما عاد الصلح أخيراً وانتهى الثأر.

فجأة يدخل بعض الشباب المتهورين حاملين أسلحتهم، ويقومون بالتخلص من جميع "العوامر" بلا رحمه، الدماء أصبحت تملأ حوائط المجلس، أصوات الرصاص والرشاشات بالخارج تصم الآذان، لا صوت يسمع غير صوت الرصاص الذي استمر بلا توقف، أخذ الجد يد حليم يسحبه خارج المنزل..

الجثث تتساقط على الأرض بالخارج، والدماء تملأ الشوارع حتى كونت تلك الأنهار الدموية، النساء يبكين في الأعلى وقد سيطر عليهن الهلع، الأطفال يختبئون تحت الأسرة خائفين من تلك الأصوات، يتمنون لو كان ذلك أحد الكوابيس التي ستختفي سريعاً..

هدأت الأصوات وتوقف الجميع، بحار الدم تملأ المكان من تحت أقدامهم، بل هي بحار الغدر التي سقط ضحيتها الكثير من القبيلتين، ليمسك الجد بكتف حليم قائلا:

- هيا اركب السيارة مع ابن عمك همّام، سيقوم بتوصيلك خارج الصعيد، فالوقت قد تأخر والقطار لا يأتي في هذا الوقت، وإن ذهبت أنت وصديقك وحدكما، فلن تستطيعا الافلات من قاطعي الطريق..

أجابه حليم وجسده يرتعش بصوت حزين:

- لماذا يا جدي؟.. لماذا؟

أمسك به همّام يجره اليه قائلاً:

- هيا يا حليم.. لا وقت لدينا..

ركب همّام سيارته وقام بتشغليها، ويركب كريم وحليم وتبدأ السيارة بالتحرك، فينظر حليم الى الزجاج الخلفي للسيارة، وإذا بجده يقوم بتوديعه بيده، وما هي لحظات حتى تلقى الجد الرصاص من الخلف، لقد عاد أبناء قبيلة "العوامر" وبدأت الحرب تشتعل من جديد..

لم يكن ما حدث من عادات وقوانين الصعيد الصارمة، بأن تقتل إحدى القبائل ضيوفها حتى و لو كانوا أعداءً، ولكن من يستسهل قتل الأبرياء.. وتصبح الدماء في نظره كشراب التوت.. يعتاد رؤيتها ولا يستنكرها! بالتأكيد ستصبح الخيانة والغدر شيئاً أسهل بكثير من الوفاء بالعهد.

مرّ الأسبوع سريعاً بعد تلك الآلام التي خلفها.. وفي معسكر الجيش المصري، الجميع يقفون بانتظام يؤدون التدريبات العسكرية، ليأتي أحد كبار قادة الجيش و يقف أمامهم جميعاً، الجميع يؤدون التحيه له.. حتى قائد التدريب الخاص بهم، ويتبين أن رتبة ذلك القائد هي العميد من الشارة المعلقة على كتفيه، وقف أمامهم العميد قائلاً بصوت مرتفع:

- "كريم أحمد عادل"

يتقدم كريم خطوة للأمام قائلاً:

- نعم يا سيدي..

يرد العميد بصوت عالٍ:

- بقلوبٍ مؤمنة.. أتقدم بتقديم واجب العزاء في وفاة والدتك وأخيك الأصغر، بسبب حادث إرهابيّ وقع في وسط العاصمة، وقد أصررت على أن أُعزيك أمام زملائك.. ليعلم الجميع.. أنّ رجال القوات المسلحة.. هم رجال أبطال، لا يهابون الموت..

صمت العميد قليلاً ثم تابع:

- جهزوا أنفسكم جميعاً، سنذهب في الغد للانضمام الى قواتنا في "سيناء".. سنأخذ حق كريم وحق كل شهيد مات غدراً من تلك الجماعات الارهابية..

على الجانب الآخر في شرق آسيا حيث ذهب سالم ورفاقه للقيام بالمناورة العسكرية، وفي المساء.. في تلك الثكنة العسكرية التي قد نُصبت.. استعداداً للمناورة العسكرية في الصباح، الجميع يجلس أمام تلك النار المشتعلة، أحدهم يلقي إحدى خواطره، والآخر يلقي بقصيدة الشعر التي ألفها، والقائد يجلس في وسطهم، يحكي لهم عن بطولاته وأمجاده.

يذهب سالم بعيداً الى أحد الأماكن، ويخرج الأنبوب الزجاجي من حقيبته، ثم يضعه على العلبة الخاصة بحفظ الطعام، والتي تمتلئ بالطعام في داخلها، فيشاهده أحدهم وهو يراقبه من بعيد.. ثم يقول لأحد القناصة بجانبه:

- لا داعي لأن نقتل سعيداً، فقد وضع له سالم السم.

فجأة يجد سالم ابن عمه سعيداً مقترباً منه من الخلف، وهو يسمك بتلك العلبة المليئة بالطعام ويقول:

- لابد أنك جائع يا ابن العم، ما رأيك أن تتناول طعامي..

ابتسم سالم قائلاً:

- حسناً، لدي فكرة جيدة، لنتبادل الطعام..

تبادل سالم وسعيد عُلبتي الطعام، ثم انتظر كل منهما الآخر أن يبدأ، ولكن لم يتذوق أي واحدٍ منهما الطعام، فينظر اليه سالم مبتسماً وهو يقول:

- لماذا لا تأكل من طبقي يا سعيد؟

فيبتلع سعيد ريقه ثم يقول:

- ما رأيك أن يتذوق كل منا طعامه أولاً؟

أخذ سالم القليل من طعامه وأكله ثم قال:

- لماذا لا تتذوق طعامك يا سعيد؟

أمسك سعيد بطبقه من أمام سالم وقذف به بعيداً.. ثم احتضنه بقوة وهو يقول:

- أنا آسف يا ابن العم، هم من طلبوا مني تسميمك..

التفت اليه سالم مبتسماً ثم قال:

- هل حقاً كنت تريد تسميمي يا ابن العم؟!

بدأت عينا سعيد تدمع متاثراً وهو يقول:

- لقد طلبوا مني أن أتخلص منك يا ابن عمي، حتى أتزوج من مريم، وتصبح كل ثروة عمي لي فقط..

ثم أمسك بيد سالم قائلاً:

- اسمع يا سالم، مريم تحبك وأنت تحبها.. هي من حقك يا ابن العم، لن اقف في طريقك بعد اليوم..

ينظر سالم الى سعيد مبتسماً ويقول:

- سعيد.. دعها للنصيب وقضاء الله، يجب أن نرضى بما تختاره هي..

بدأ سعيد بابتلاع ريقه ثم قال منفعلاً:

- لقد رأيتك من بعيد وأنت تفرغ تلك الزجاجة، لابد أنها كانت سمّاً أيضاً، كيف تقوم بإيذاء نفسك؟ يجب ألا تموت يا سالم، سأطلب المساعدة من القائد الآن..

ابتسم سالم ساخراً ثم قال:

- لم يكن سُماً..

قاطعه سعيد مندهشاً:

- إذن ماذا كانت تحتوي تلك الزجاجة؟!

أخرج سالم نفساً عميقاً ثم قال:

- إنه "بلاسيبو"

أشرقت شمس صباح اليوم التالي.. وبدأ منظر الغروب يعم الأرجاء.. لتبدأ الثكنة العسكرية الخاصة بالتحرك..

بعد أن توقفت الكتيبة.. بدأ الجميع يستعد للمناورة العسكرية.. وبينما يجلس سالم وسعيد بالطائرة، يمسكان بيد بعضهما البعض، ويستعدان للقفز بالمظلات، إذ اصطدمت إحدى الطائرات العسكرية عن طريق الخطأ بالطائرة التي يستقلانها، فيصبحا شهيدين وكلاهما ممسك بيد صاحبه.

بعد شهور.. يجلس الدكتور مالك في مكتبه الخاص.. بعد تلك المحاضرة الطويلة التي قام بإلقائها أمام طلابه، وبينما يقرأ أحد الصحف، فيشاهد صور شهداء الوطن في "سيناء".. وأسفل كل صورة اسم صاحبها، فيتعرف سريعاً على حليم وكريم.. ويقوم بقص صورتهما من الصحيفة..

ثم يقوم بتعليق صورتهما تحت الزجاج الذي يغطي سطح مكتبه، ويحتفظ بتلك الصحيفة داخل إحدى أدراج مكتبه..

بالرغم من قسوة الأرض.. إلا أن أرواحهم جميعاً صعدت الى السماء، لتلتقي تلك الأرواح جميعها مجدداً في الأعلى، ولكن هذه المرة في عالم ليس فيه كراهية أو حقد أو عنصرية أو تمييز..

ربما ليست جميع أصابع اليد متشابهة.. ربما ليست جميع البحار مالحة.. ربما ليست جميع النجوم في السماء مضيئة.. فهناك نجوم عظيمة ولكن.. تختبئ بعيداً جداً ولا نستطيع حتى رؤيتها..

ولو أصبحت جميع البحار عذبة صالحة للشرب.. فمن أين كنا سنحصل على الأملاح الضرورية والجواهر الثمينة المتواجدة في البحار المالحة..

فما أجمل أن يعيش الجميع في سلام.. بلا كراهية وحقد.. بلا عنصرية واحتقار.. بلا عبودية مقننة.. بلا تفرقة بين شخص وآخر.. أبيض وأسود..

فالجواهر الثمينة من الكربون الأسود.. وبياض الثلج لا أحد يسكنه في الشمال.. والدماء التي تتدفق وتسير في عروقنا.. مهما اختلفت أجناسنا سيظل لونها أحمر.. ربما لم تُخلق الكراهية والحقد والعنصرية.. بل نحن من صنعناها..

ربما لم يُخلق الشر والقتل والسرقات.. بل هذا هو نتاج ما صنعناه بأيدينا..

تمت!

كلمة خاصة من الكاتب:

استغرقت شهوراً في إعداد الرواية وكتابتها ومراجعتها لإخراجها في أفضل صورة ، واستعنت بأفضل مدقق للغة واستعنت بطبيب بشري (بجانب خبرتي الدوائية والطبية) حتى يستفيد القارئ على قدر المستطاع ، بالاضافة إلى فريق التصميم والبرمجة الخاص بي والمشرف على موقعي و بجانب المبادرة الخاصة من دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم في حفظ الحقوق الأدبية ، وأنتهز هذه الفرصة لتقديم كل احترامي وتقديري لصاحب الدار المحترم الدكتور مجدي على ما بذله من مجهود مشكور..

ليس هناك كتاب بشري كاملاً في عالمنا ، فالكمال لله وحده ولكلامه المقدس غير المنقوص ؛ لذا أرجو أن لا تبخل عليَّ بنقدك حتى لو كان معارضاً فأنا متقبل لجميع الآراء طالما أنها بناءة ، وشكراً لك لأنك أهديت كتابي بعضاً من وقتك في قراءته..

أرجو أن تتفضل بتشريفي بإضافة نقدك من خلال الموقع الإلكتروني (**Goodreads.com**) يمكنك الوصول لرابط الرواية بالضغط على الرابط التالي: https://www.goodreads.com/book/show/55591001